الباب الثامن

آلهة اليونان

الفصل الأول

أصل الشرك

إذا بحثنا عن العناصر الموحِّدة فى حضارة هذه المدائن المتفرقة وجدنا منها خمسة عناصر جوهرية : لغة مشتركة ذات لهجات محلية ؛ وحياة ذهنية مشتركة لا يعرف من رجالها فى الأدب والفلسفة والعلوم خارج حدود بلادهم السياسية إلا كبارهم ، وشغف مشترك بالألعاب الرياضية ينفسون به فى المباريات التى تقام بين الأفراد فى المدن نفسها أو بين الدول بعضها وبعض ، وحب للجمال تعبر عنه المدن بأشكال من الفن عامة بين الجماعات اليونانية كلها ، وطقوس وعقائد دينية موحدة بعض التوحيد .

وكان الدين عاملا فى التفرقة بين اليونان بقدر ما كان عاملا فى وحدتهم . فقد كان من وراء عبادة آلهة الأولمپس العامة البعيدة ، وهى العبادة التى كان فيها قسط كبير من الأدب والمجاملة ، عبادة أقوى منها للآلهة وللقوى التى تدين بالطاعة لزيوس . وكانت النزعة الانفصالية القبلية والسياسية تغذى الشرك وتجعل التوحيد مستحيلا . فقد كان لكل أسرة فى أيام اليونان القديمة إلهها الخاص ، توقد له فى البيت النار التى لا تنطفئ أبداً ، وتقرب له القربان من الطعام والخمر قبل كل وجبة . وكان هذا الاقتسام المقدس للطعام بين الآدميين والآلهة أول الأعمال الدينية الأساسية التى تعمل فى البيت . وكان المولد والزواج والموت تُخلع عليها هالة

من القداسة بالطقوس القديمة أمام النار المقدسة ، وبهذه الطريقة كان الدين عاملا فى خلق الشعر الصوفى وفى إكساب الحادثات الرئيسية فى الحياة البشرية مسحة من الوقار أعانت على استقرارها وثباتها . وكذلك كان لكل جماعة بطنا كانت أو عشيرة أو قبيلة أو مدينة إلهها الخاص بها ، فكانت مدينة أثينة تعبد الإلهة أثينا ؛ وإلوسيس تعبد دمتر ، وساموس تعبد هيرا ، وإفسوس تعبد أرتميز ، وبوسدونيا تعبد بوسيدن . وكان وسط المدينة وأعلى مكان فيها ضريح إلهها ، وكان الاشترك فى عبادة إلهها رمز مواطنيها وميزتهم والواجب المفروض عليهم . وإذا ما خرجت المدينة للحرب حملت معها فى مقدمة جيوشها صورة إلهها وشعاره ، ولم تكن تخطو خطوة خطيرة إلا بعد استشارته بسؤاله عما يخبئه الغيب لها . وكان لها عليه فى نظير هذا أن يحارب فى صفها ، وكان يبدو لأهلها أحيانا أنه قد يتجلى لهم فى مقدمة الجيش أو فوق رماح الجنود . ولم يكن النصر مقصوراً على غلبة مدينة لمدينة بل كان يشمل فوق ذلك غلبة إله لإله . وكانت المدينة ، كما كانت الأسرة وكما كانت القبيلة ، تحتفظ على الدوام بنار مقدسة موقدة عند مذبح عام فى بهو المدينة ، ترمز لحياة منشئيها وأبطالها القوية الخالدة ؛ وكان مواطنوها يجتمعون فى مواسم معينة ليطعموا جميعاً أمام هذه النار . وكما كان أب الأسرة هو أيضاً كاهنها ، كذلك كان حاكم المدينة الأكبر أو أركونها كبير كهنة فى دين الدولة ، وكان الإله يخلع على سلطانه وأعماله كلها ثوباً من القداسة . وهكذا استحال الإنسان بفضل تجنيد الآلهة على هذا النحو من صياد جوال إلى مواطن مستقر .

وحرر الاستقلال المحلى خيال اليونان الدينى من القيود فأخرج للعالم أساطير دينية موفورة ومجموعة كبيرة من الآلهة . فكان كل شىء وكل قوة فى الأرض أو السماء ، وكل نعمة أو نقمة ، وكل صفة — ولو كانت رذيلة — من صفات الإنسان ، تمثل إلهاً فى صورة بشرية عادة . وليس ثمة دين يقرب آلهته من

الآدميين قرب آلهة اليونان . وكان لكل حرفة ، ولكل مهنة ، ولكل فن ، إله خاص أو راع حارس ؛ بلغة هذه الأيام . وكان عند اليونان فضلا عن هذا شياطين ، ونساء مجنحة ، وآلهة انتقام ، وجن ، وأرباب بشعة المنظر ، وإلاهات ذوات صوت شجي يسلب العقول ، وحور عين فى البحار والغاب لا يقل عديدهن عن سكان الأرض من الآدميين . وفى هذه البلاد بنوع خاص لا تبقى حاجة للسؤال القديم « هل الدين من وضع الكهنة ؟ » . ذلك أن من غير المعقول أن أية مؤامرة يدبرها رجال الدين الأولون تستطيع أن تخرج هذه الكثرة من الآلهة . وما من شك فى أن من أكبر النعم التى ينعم بها هؤلاء الأقوام أن يكون لهم كل أولئك الآلهة ، وكل هاته القصص الفتانة الساحرة ، وكل هذه الأضرحة المقدسة والحفلات المهيبة المرحة . لقد فطر الإنسان على أن يعبد آلهة متعددة كما فطر على الزواج من نساء متعددات ، ولا يقل عمر فطرته الأولى عن فطرته الثانية ، لأنها توائم كل المواءمة ما فى العالم من تيارات متعارضة . وإن مسيحية البحر المتوسط فى هذه الأيام لا يعبد فيها الله بقدر ما يعبد فيها الأولياء والقديسون . ذلك أن الشرك هو الذى يوحى إلى حياة السذج بالأساطير وما فيها من خيال وسلوى ؛ ويهب النفس الذليلة المعونة والراحة واللتين لا تجرؤ على انتظارهما من كائن أعلى رهيب بعيد لا تستطيع الوصول إليه(*) .

وكان لكل إله من الآلهة أسطورة (Mythos) أى قصة ، متصلة به تشرح سبب وجوده فى حياة المدينة ، أو تفسر الطقوس التى تقام تكريماً له .

(*) لا نوافق المؤلف على قوله إن الشرك فطرة فطر الناس عليها إلا إذا كان يقصد بالفطرة صفة الإنسان الجاهل الساذج صاحب العقل غير المستنير . ودليلنا على هذا نزعة الإنسان إلى الإيمان بوحدانية الله واقترابه من هذه الوحدانية بقدر استنارة عقله . كذلك لا تر ما يراه من أن النفس البشرية لا تجد المعونة والراحة إلا فى الأساطير وفى الشرك ، بل نعتقد أن فى وسعها أن تجدهما فى رعاية الله الرحمن الرحيم القريب من عباده المجيب لدعوة الداعى إذا دعاه .
(المترجم)

وقد أصبحت هذه الأساطير التى نشأت نشأة تلقائية مما فى المكان ومما لدى الناس من معارف ، أو كانت من وضع الشعراء الدوارين وزخرفهم ، أصبحت هذه الأساطير عقيدة اليونان الأولين ، وفلسفتهم ، وآدابهم ، وتاريخهم ، جميعاً . فنها استمدوا الموضوعات التى زينوا بها مزهرياتهم ، وهى التى أوحت إلى الفنانين ما لا يحصى من الرسوم ، والتماثيل ، والنقوش . وقد ظل الناس إلى آخر أيام الحضارة الهيلينية يخلقون الأساطير ، بل يخلقون الآلهة أنفسها ، رغم ما أنتجته بحوثهم الفلسفية ، ورغم محاولات عدد قليل منهم دعوة الناس إلى التوحيد . لقد كان فى وسع رجال من أمثال هرقليس أن يعدوا أمثال هذه الأساطير مجرد مجازات وتشابيه ، وفى وسع آخرين أمثال أفلاطون أن يعدلوها ويوفقوا بينها وبين ما تقبله العقول ، وفى مقدور رجال من أمثال زنوفانيز أن ينددوا بها وينبذوها ؛ غير أن پوزنياس ، حين طاف ببلاد اليونان بعد خمسة قرون من عهد أفلاطون ، وجد الخرافات والأساطير التى كانت تثير الحمية فى قلوب الأهلين فى عصر هومر لا تزال حية قوية . ذلك أن عملية تشعير الأساطير ، وتشعير(*) الدين عملية طبيعية ، تحدث فى هذه الأيام كما كانت تحدث على الدوام فى العصور الخالية ؛ وثمة نسبة للوفيات ونسبة للمواليد بين الآلهة . فالألوهية كالطاقة تبقى كميتها مهما تغيرت صورتها لا تكاد تنقص أو تزيد خلال الأجيال المتعاقبة(**) .

(*) صياغتها شعراً . (المترجم)

(**) للآراء التى يعرضها المؤلف فى هذا الفصل مؤيدون ومعارضون . وقد آثرنا أن نضعها أمام القراء ونترك لهم معارضتها أو تأييدها . (المترجم)

الفصل الثانى

سجل الآلهة

فى وسعنا أن نلقى شيئاً من الترتيب والوضوح على هذا الحشد الكبير من الآلهة إذا نحن قسمناه تقسيما مصطنعا إلى سبع مجموعات : آلهة السماء ، وآلهة الأرض ، وآلهة الخصب ، والآلهة الحيوانية ، وآلهة ما تحت الأرض وآلهة الأسلاف أو الأبطال ، والآلهة الأولمبية . وأما « أسماؤها جميعاً فما يشق على الإنسان ذكرها » كما يقول هزيود[1] .

(١) وكان إله الغزاة اليونان فى بادئ الأمر ، على ما نستطيع أن نتبينه من الأساطير ، هو إله السماء العظيم المختلف الصور . ويشبه اليونان فى هذا الهنود القديين . ثم تطور هذا الإله شيئاً فشيئاً حتى أصبح هو أورانوس أو السماء نفسها ، ثم أضحى « مرسل السحاب » ، مسقط المطر ، جامع الرعد ، زيوس . وإذ كانت تلك البلاد تنال فوق كفايتها من ضوء الشمس ، ولكنها ظمآى للمطر ، فإن إله الشمس هليوس لم يكن له فيها شأن كبير ، ولذلك كان من الآلهة الصغرى . وقد صلى له أجمنون ودعاه لمعونته[2] ، وكان الاسپارطيون يضحون له بالخيل لتجر عربته الملتهبة فى قبة السماء[*] ، وكان أهل رودس حين اصطبغت بلادهم بالصبغة اليونانية يعظمون هليوس ، ويعدونه كبير آلهتهم ، ويلقون فى البحر كل عام أربعة جياد وعربة ليستخدمها فى تجواله ، وأقاموا الهيكل الضخم الذائع

(*) وطلب فيتون Phaéton (المتلألئ) ابن هليوس أن يسوق عربة الشمس فى عرض السماء . ولكنه اندفع يسوقها بتهور ، وكاد يشعل النار فى العالم كله فصعقه البرق ، وسقط فى البحر . ولعل اليونان ساقوا هذه القصة ، كما ساقوا قصة إكاروس Icarus ، ليعظوا بها الشباب .

الصيت ، وكاد أنكسجرس يفقد حياته فى أثينة بركليز نفسها ، لأنه قال إن الشمس ليست إلها وإنما هى كرة من النار لا أكثر . ثم زالت عبادة الشمس شيئاً فشيئاً حتى لم يكد يبقى لها أثر فى تاريخ اليونان القديم ، وكان القمر أقل من الشمس شأنا ، والكواكب والنجوم أقل منه ومنها .

(٢) وكانت الأرض ، لا السماء ، موطن معظم الآلهة اليونانية . فكانت الأرض نفسها فى بادئ الأمر هى الإلهة جى Ge أو جيا Gaea الأم الصابرة السمحة الجزيلة العطاء ، التى حملت حين عانقها أورانوس — السماء — فنزل المطر . وكان يسكن الأرض نحو ألف إله آخر أقل من جى شأنا ، فى مائها وفى الهواء المحيط بها : منها أرواح الأشجار المقدسة ، وخاصة شجرة البلوط ، ومنها النريدات Nereids ، والنيادات Naiads ، والأوقيانوسيات فى الأنهار والبحيرات والبحار ، وكانت الآلهة تتفجر من الأرض عيونا ، أو تجرى جداول عظيمة مثل الميندر أو الاسبركيوس Spercheus ؛ وكان للريح آلهة مثل بورياس Boreas ، وزفر Zephyr ونوتس Notus ، ويوروس Eurus ، وسيدها إيوس ؛ وكان من آلهة الأرض پان العظيم ، ذو القرنين ، المشقوق القدمين ، الشبق ، المغذى ، البسام ، إله الرعاة والقطعان ، والغابات والحياة البرية ، الكامن فيها ، والذى تُسمع صفارته فى كل جدول وواد ، والذى تبعث صيحته الفزع (*) فى كل قطيع لا يعنى به ، والذى يقوم على خدمته جنيات الغاب والحراج ، وتلك الجنيات المعروفة بالسليني Sileni وهى مخلوقات نصف جسمها معز ونصفه بشر . وكان فى كل مكان فى الطبيعة آلهة ، وكان الهواء غاصا بالأرواح الطيبة أو الخبيثة لا تكاد « تجد فيه شقا فارغا تستطيع أن تدفع فيه طرف ورقة نبات » كما قال شاعر غير معروف(*) .

(٣) وإذ كانت أعجب قوى الطبيعة وأقواها هى قوة التكاثر ، فقد كان

(*) إن كلمة Panic أى المعر مشتقة من الإله پان . (المترجم)

طبيعياً أن يعبد اليونان ، كما كان يعبد غيرهم من القدامى ، رمزى الإخصاب الرئيسيين فى الرجل والمرأة إلى جانب عبادتهم خصب التربة . ولهذا كان قضيب الرجل وهو رمز الإنتاج يظهر فى طقوس دمتر ، وديونيسس ، وهرمس ، وحتى فى طقوس أرتميس الطاهرة(٦) . ويتكرر ظهور هذا الرمز فى النحت والتصوير فى أهم عصر من عصورهما تكراراً فاضحاً ، بل إن عيد ديونيشيا العظيم ، وهو الاحتفال الدينى الذى كانت تمثل فيه المسرحيات اليونانية ، كان يفتتح بموكب تحمل فيه رموز قضبان الرجال ترسل الكثير منها المستعمرات الأثينية شاهداً على صلاحها وتقواها(٧) . وما من شك فى أن هذه الحفلات كانت تثير الكثير من الفكاهات الجنسية البذيئة ، كما تدلنا على ذلك كتابات أرستفنيز ؛ ولكن كثرتها كانت خالية من هذه البذاءة ، ولعلها كانت تثير الشهوة الجنسية فى الرجال والنساء وتساعد على كثرة النسل(٨)

وكانت أحط ناحيـــة من نواحى مراسم الإخصاب تظهر فى العهود التى انتشرت فيها الحضارة اليونانية الصبغة والحضارة اليونانية ، والتى كان يعبد فيها پرياپوس Priapus الذى ولد نتيجة لاتصال ديونيسس وأفروديتى ، والذى كان الفنانون يزينون بصورته المزهريات وجدران المبانى فى پمپى Pompeii . وكان أظرف من هذه المراسم وأعف فى موضوع التناسل نفسه إجلال الإلهات التى ترمز إلى الأمومة . فقد كانت أركاديا ، وأرجوس ، وإلوسيس ، وأثينة ، وإفسوس ، وغيرها من الأماكن تجل أعظم الإجلال إلهات معظمهن لا أزواج لهن ، كنّ فى أغلب الظن أثراً من آثار عصر ينسب الأبناء فيه إلى الأمهات قبل أن يحل عصر الزواج(٩) ؛ ولقد كان الاعتراف بسلطان زيوس الإله الأب على سائر الآلهة رمزاً لانتصار مبدأ سيطرة الآباء على الأمهات(*) . ولعل سبق النساء على

(*) على القارئ أن يلاحظ عدم وجود إلهات أمهات فى المجتمعات ذات السيطرة الأبوية القوية كالمجتمعات اليهودية والإسلامية والمسيحية والپروتستنتية (المؤلف) . يصعب علينا أن =

الاشتغال بالزراعة ، وهو السبق الذى يرجحه الكثيرون ، قد ساعد على إيجاد أعظم إلهة من هاته الإلهات الأمهات ، وهى دمتر إلهة الحنطة أو الأرض المنزرعة . ومن أجمل الأساطير اليونانية التى تقصها فى أحسن عبارة ترنيمة دمتر وهى الترنيمة التى كانت تعزى فى وقت من الأوقات إلى هومر نفسه ، نقول إن من أجمل هذه الأساطير أسطورة تصف كيف اختطف بلوتو Pluto إله العالم السفلى پرسفونى ابنة دمتر ونزل بها إلى الجحيم ، وكيف أخذت أمها الحزينة تبحث عنها فى كل مكان حتى عثرت عليها وأقنعت بلوتو أن يسمح لابنتها بأن تعيش على ظهر الأرض تسعة أشهر فى كل عام — وذلك رمز ظريف لموات التربة السنوى وتجددها . وإذ كان أهل إلوسيس قد عطفوا على دمتر المتنكرة وهى « جالسة فى الطريق فى أشد حالات الحزن والكرب » ، فقد علمتهم هى وأهل أتكا سرَّ الزراعة ، وأرسلت تريتولموس Triptolemus ابن ملك إلوسيس لينشر هذا الفن بين بنى الإنسان . وهذه الأسطورة تفتق فى جوهرها وأسطورة إيزيس Isis وأوزيريس Osiris فى مصر ، وأسطورة تموز وإشتار فى بابل ، وأسطورة عشتروب وأدنيس فى سوريا ، وسيبيل وأتيس فى فريجيا . وقد بقيت طقوش الأمومة طوال عصر اليونان العظيم ، ثم عادت إلى الحياة من جديد فى صورة تقديس مريم أم الإله .

(٤) وكانت بعض الحيوانات فى تاريخ اليونان المبكر تعظَّم وتتخذ أنصاف آلهة — إذا جاز هذا التعبير . وكان السبب فى أنها لم ترق إلى مرتبة الآلهة الكاملة أن الدين اليونانى كان فى العصر الذى ازدهر فيه فن النحت ديناً آدميا إلى حد لا يسمح بوجود آلهة حيوانية كثيرة بالصورة التى نجدها فى مصر والهند ؛ ولكن أثراً من آثار ما قبل هذا العصر الزاهر يبدو لنا فى كثرة الجمع بين الحيوان والإله فى بعض التماثيل . ولقد كان الثور حيواناً مقدساً لقوته وقدرته ، وكثيراً

= نفهم ما يرمى اليه المؤلف بقوله عدم وجود إلهات فى الإسلام وهو دين التوحيد الذى لا يعترف بالألوهية إلا لله وحده . (المترجم)

ما كان يوصف بأنه رفيق لزيوس وديونيسس ، أو صورة لهما تنكرا فيها ، أو رمزاً لهما ، وربما كان إلها قبلهما[١٠] ولعل « هيرا ذات العين البقرية » ، كانت هى أيضاً بقرة مقدسة[١١] . وكان الخنزير أيضاً مقدساً لكثرة تناسله ، وكان يجمع بينه وبين دمتر الظريفة . وكان القربان الظاهر الذى يقدم لها هى فى أحد أعيادها المعروف بعيد الثسموفوريا Thesmophorio خنزيرا ، أو لعل القربان كان يقدم إلى الخنزير نفسه[١٢] . وفى عيد الديازيا Diasia كان هذا القربان يقرب لزيوس فى الظاهر ، ولكنه فى الحقيقة كان يقرب إلى أفعى تسكن فى باطن الأرض تسمى وقتئذ باسمه تكريما لها[١٣] . وسواء أكان تقديس الأفعى لأنها فى ظنهم لا تموت ، أم لأنها ترمز إلى القدرة على التناسل والإنتاج ، فإنا نراها تنتقل فى صورة إلهة من أفعى كريت إلى أثينة القرن الخامس ؛ فقد كانت أفعى مقدسة تقيم فى هيكل أثينة على الأكروبوليس ، وكان يقدم إليها فى كل شهر كعكة مقدسة زلفى إليها واستدراراً لعطفها . وكثيراً ما ترى الأفعى فى الفن اليونانى حول تماثيل هرمس ، وأبلو ، وأسكابيوس[١٥] ؛ وقد صوَّر فيدياس أفعى ضخمة محاطة بإكليـــل من الزهر فى درع « أثينى پرثنوس » ، وتغطى الأفاعى الجزء الأكبر من تمثال أثينا الفرنيزية[١٦] . وكثيراً ما كانت الأفعى تتخذ رمزاً للإله الحارس للهياكل والمنازل أو صورة لهذا الإله[١٧] ، وربما كانت كثرة وجودها حول المقابر سبباً فى اعتقاد الناس أنها روح الموتى[١٨] . ويعتقد بعضهم أن الألعاب الدلفية قد احتفل بها فى بادئ الأمر تكريما لأفعى دلفى الميتة .

(٥) وكانت أكثر الآلهة رهبة تعيش تحت الأرض. ففى المغارات والشقوق وأمثالها من الفتحات السفلى ، كانت تعيش تلك الآلهة الأرضية التى لم يكن اليونان يعبدونها بالنهار عبادة تنطوى على الحب والإجلال ، بل كانوا يعبدونها ليلا عبادة مصحوبة بأناشيد وطقوس تنم عن التوبة والهلع . وكانت هذه القوى غير البشرية هى المعبودات الحقيقية الأولى لبلاد اليونان ، وكانت أقدم من

معبودات الهيلينيين ، بل لعلها أقدم من معبودات الميسينيين الذين نقلوها فى أغلب الظن إلى بلاد اليونان نفسها . ولو أننا استطعنا أن نتتبعها إلى أصلها الأول لكان فى وسعنا أن نصل إلى أنها كانت فى بدايتها الأرواح المنتقمة للحيوانات التى طردها بنو الإنسان إلى الغابات أو إلى ما تحت الأرض فى أثناء تقدمهم وتكاثرهم . وكان أعظم هذه الآلهة الأرضية هو زيوس الأرضى ؛ وزيوس هنا اسم نكرة لايعنى أكثر من إله[١٩] . وكان يسمى أحيانا زيوس ميلكيوس Meilichios أى زيوس الخَيِّر ؛ ولكن الوصف هنا أيضاً وصف خادع يقصد به استرضاء هذا الإله الذى كان يصور فى صورة أفعى رهيبة . وكان هاديز Hades ربُّ ما تحت الأرض أخا لزيوس وعند أخذ اسمه . وأراد اليونان أن يسكنوا غضبه فسموه پلوتو أى واهب الوفرة ، لأنه كان فى مقدوره أن يبارك أو يبيد جذور كل ما ينبت على سطح الأرض(*) . وكان أشد من پلوتو روعة ورهبة الإلهة هكتى Hecate ، وهى روح خبيثة تخرج من العالم السفلى وتسبب البؤس والشقاء بعينها الحاسدة الشريرة لكل من تزوره من الخلائق . وكان القليلو العلم من اليونان يقربون لها الجراء ليبعدوها عنهم[٢١] .

(٦) وكان الموتى قبل عصر اليونان المجيد يعدون أرواحا قادرة على أن تفعل للناس الخير والشر ، وتسترضى بالقرابين والصلاة . ولم تكن هذه الأرواح آلهة بالمعنى الصحيح ، ولكن الأسرة اليونانية البدائية كانت تعظم موتاها تعظيما يفوق تعظيمها أى إله من الآلهة ، شأنها فى هذا شأن الأسرة الصينية[٢٢] . وكان اليونان فى عصرهم الزاهر يرهبون هذه الأشباح الغامضة أكثر مما يحبونها ، وكانوا يسترضونها بطقوس ومراسم يقصد بها إبعادها واتقاء شرها ، كما كانوا يفعلون

(*) وكان پلوتس Plutus إله الثروة صورة من پلوتو . وكانت الثروة عند اليونان الأولين تتخذ فى أكثر الأحيان صورة الحبوب منزرعة فى الأرض أو مخزونة فى جرار ، وكانت فى كلتا الحالين تحت حماية پلوتو .

فى عيد أنثستريا Anthesteria . وكانت عبادة الأبطال امتداداً لعبادة الموتى ؛ فكان فى وسع الآلهة أن تهب العظيم أو الشريف ، أو الرجل الجميل أو المرأة الجميلة ؛ الحياة الخالدة فتجعله أو تجعلها من بين الآلهة الصغرى . وكذلك كان سكان أولمپيا يقربون القرابين فى كل عام إلى هپوداميا Hippodameia ؛ وكانت كسندرا Cassandra تعبد فى لوكترا Leuctra اللكونية Laconian ، وهلن فى اسپارطه ، وأوديب فى كولونوس Colonus وكان يحدث أحياناً أن ينزل الإله ويتقمص جسم إنسان ، فيستحيل هذا الإنسان إلها ، وقد يتصل الإله اتصالا جنسياً مع امرأة من الآدميين فتلد بطلا — إلها كما فعل زيوس مع أكينا فولدت هرقل . وكان كثير من المدن والجماعات ، وأبناء الحرف أنفسهم ، يصلون أنسابهم ببطل من أبناء الآلهة ؛ فكان أطباء اليونان مثلا يصلون نسبهم إلى أسكلپيوس . وكان الإله فى أول الأمر من الأسلاف أو الأبطال الموتى ، كما كان المعبد فى الأصل قبرا ، ولا تزال الكنيسة حتى الآن فى معظم البلاد مكانا تحفظ فيه آثار الموتى القديسين .

ويمكن القول بوجه عام إن اليونان لم يكونوا يفرقون بين الآدميين والآلهة بقدر ما نفرق نحن بينهم ؛ فقد كان كثير من آلهتهم لا يقلون فى آدميتهم عن القديسين عندنا ، اللهم إلا فى مولدهم ، وكانوا قريبين إلى عبادهم قرب القديسين إلينا ؛ وكان بعضهم مثل ديونيسس يموتون وإن سموا بالخالدين .

٢ — الآلهة الأولمبية

كانت هذه الآلهة كلها فى المرتبة الثانية من الشهرة بين آلهة اليونان وإن لم تكن حتما فى المرتبة الثانية من التعظيم . ترى لأى سبب لا نسمع فى شعر هومر عن هذه الآلهة إلا القليل ، ولأى سبب نسمع عن الآلهة الأولمپية الشىء الكثير ؟ أكبر الظن أن مرد هذا إلى أن آلهة أولمپس قد جاءت إلى البلاد مع الآخيين

والدوريين وزلزلت عروش الآلهة الميسينية والأرضية ، وغلبتها كما غلبت من كانوا يعبدونها . وفى وسعنا أن نشاهد ماحدث للآلهة الأولى فى دودونا Dodona ودلفى حيث حل زيوس فى المدينة الأولى محل چيا وحل أپلو محلها فى الحالة الثانية . على أن الآلهة المغلوبة لم تمح من الوجود محوا تاما بل بقيت خاضعة للآلهة الجديدة تأتمر بأمرها إذا صح أن نتحدث عن شئون الآلهة بمثل هذا الحديث ، فانزوت ذليلة تحت الأرض ولكنها ظلت موضع التبجيل من عامة الشعب ؛ بينما كانت الآلهة الأولمپية المنتصرة تتقبل وهى مستوية على عروشها فى أعلى الجبل صلوات عبادها الأشراف . وهذا هو السبب فى أن هومر الذى كان يكتب للصفوة المختارة لايكاد يحدثنا بشىء عن آلهة الأرض . وهكذا أعان هومر وهزيود والمثالون الفائحين أصحاب السلطة السياسية العليا على نشر عبادة الآلهة الأولمپية . وقد حدث فى بعض الحالات أن اتحدت الآلهة الصغرى أو امتزجت بالكبرى ، وأصبحت من حاشيتها أو أتباعها ، كما كانت الدول الصغرى تنضم من حين إلى حين إلى الدول الأكبر منها أو تخضع لحكمها . وهكذا خضعت جنيات الآجام صغارها وكبارها لديونيس ، وخضعت حور البحار لپوسيدن كما خضعت الأرواح التى تقطن الغابات لأرتميس ، واختفت الطقوس والأساطير الهمجية شيئاً فشيئاً على مر الأيام ؛ وحلت محل الأساطير المضطربة التى كانت تصور الأرض ملآى بالشياطين حكومة للآلهة على شىء من النظام كانت فى واقع أمرها مرآة ينعكس عليها ما طرأ على العالم اليونانى من استقرار سياسى آخذ فى النماء .

وكان على رأس هذا النظام الإلهى الجديد رب الأرباب زيوس العظيم ؛ ولم يكن زيوس أول من وجد من الآلهة ، فقد سبقه كما رأينا من قبل أورانوس وكرونوس ، ولكنهما هما والجبابرة Titans قد ثلت عروشهم كما ثلت عروش جيش الشيطان Lucifer (*). وقسم زيوس وإخوته العالم ووزعوه فيما بينهم بطريق

(*) لقد أصبح النزاع الذى قام بين زيوس وأعوانه من جهة وبين الجبابرة من جهة =

القرعة ؛ فكانت السماء من نصيب زيوس ، وكسب پوسيدن البحار ، وكسب هيديز باطن الأرض . وليس فى أساطير اليونان ذكر لخلق العالم ؛ فقد وجدت الأرض قبل أن توجد الآلهة ولم تخلق الآلهة الإنسان من حمأ بل خلقته من تزاوج الذكور منها بالإناث ، أو بتزاوجها بأنثاها غير الخالدين ؛ والله فى دين اليونان ليس إلا والداً ، كما أن الآلهة الأولمپية ليست قادرة على كل شىء عارفة بكل شىء ، بل إن كل واحد منها يحدد سلطان الآخر ويعارضه أحياناً ، وكلها بما فيها زيوس نفسه يمكن أن يخدع ؛ غير أنها على بكرة أبيها تقر له بالسيادة عليها ، وتحشد فى بلاطه كما يحتشد الأتباع فى ساحة أمير إقطاعى ؛ وهو وإن استشارها فى بعض الشئون ، وعمل برأيها فى بعضها وإن خالفت رأيه[٢٣] ، كثيراً ما يزجرها ويلزمها أن تعرف قدر نفسها[٢٤] . وهو يبدأ بأن يكون إلهاً للسماء والجبال ، ومنزل المطر الذى لا غنى للناس عنه[*] ، وهو فى بعض صوره الأولى إله حرب كيهوه ، يجادل نفسه هل ينهى حصار طروادة أو « يجعل الحرب أكثر مما كانت وحشية وإراقة للدماء » ويأخذ بالرأى الثانى[٢٦] . ثم يصبح بالتدريج حاكم الآلهة والبشر ، الهادئ القوى الجالس فوق أولمپس ، الملتحى الوقور ، رأس النظام الأخلاقى ومصدره فى العالم كله ، يعاقب غير البررة من الأبناء ، ويحمى أملاك الأسرة ، ويوثق الأيمان ، يعاقب الخائنين ، ويحفظ الحدود ، والمساكن ، والمتضرعين ، والأضياف ، وهو أخيراً المصـــدر الأعلى للأحكام الذى نحت فدياس تمثاله لأولمپيا .

= أخرى فى نظر اليونان رمزاً لتغلب الحضارة والعقل على الهمجية والقوة الوحشية وقد استمد الفن منه كثيراً من موضوعاته .

(*) أكبر الظن أن لفظ زيوس ذو صلة بكلمة dies اللاتينية التى اشتقت منها كلمة day الإنجليزية ، وقد تكون مأخوذة من أصل هند – وربى هو id ومعناه يلتمع . وچوپتر عند الرومان هو ريو – پاتر Zeu - pater أى زيوس الأب ، ومنه اشتقت كلمة dios . وفى هذه الأيام سميت الأماكن وقمم الجبال التى كان يأوى إليها زيوس أو كانت حرماً مقدسا له باسم القديس إلياس من قديمى الكنيسة اليونانية ومنزل المطر البلاد ، أو أصبحت حرماً مقدساً لهذا القديس[٢٥] .

وعيبه الوحيد هو ما يدفعه إليه نزق الشباب من استسلام سريع للحب ، وإذ لم يكن هو خالق النساء فإنه يعجب بهن ويراهن كائنات عجيبة تجد الآلهة نفسُها فيهن موهبة الجمال والحنان ، وهما صفتان تسموان عن كل تقدير ؛ ويجد نفسَه عاجزاً عن مقاومة إغرائهن . ويذكر هزيود ثبتاً طويلا بمحبوبات الإله ، وبما أنجبن منه من أبناء عظام[٢٧] . وكانت حبيبته الأولى ديونى ، Dione ولكنه يغادرها فى أپيروس حين يهاجر إلى أولمپس فى تساليا ، وفيها تكون زوجته الأولى هى متيس Metis إلهة الكيل ، والعقل ، والحكمة ؛ ويترامى إليه أن أبناءها سينزلونه عن عرشه ، فيبتلعها ، ويأخذ منها صفاتها ، ويصبح هو نفسه إله الحكمة ؛ وتلد متيس أثينا فى جوفه ، وإذن فلا بد من قطع رأسه حتى تخرج إلى العالم ، ويحس هو بالوحدة والحاجة إلى المؤنس الجميل فيتزوج ثميس Themis وتلد له الساعات الاثنتى عشرة ؛ ثم يتزوج يورينوم وتلد له إلاهات اللطف الثلاث ؛ ثم يتزوج نموسينى Mnemosyne وتلد له ربات الشعر التسع ؛ ثم ليتو وينجب منها ولديه أپلو وأرتميس ؛ ثم أخته دمتر وينجب منها پرسفونى : فإذا ما صرف شبابه فى الملاذ على هذا النحو تزوج آخر الأمر أخته هيرا وأجلسها ملكة على أولمپس فتلد له هيبى Hebe ، وأريس Ares ، وهفستوف Hephaestus ، وأيليثيا Eileithyia ، ولكن الشقاق يقع بينه وبينها ، لأنها لا تقل عنـــه سناً ؛ وهى تلقى أكثر مما يلقى من التكريم فى كثير من الدول اليونانية ، وهى رعاية الزواج والأمومة ، وحامية الروابط الزوجية ؛ وهى ظريفة أنيقة ، وقورة ، فاضلة ، لا يعجبها عبته ومداعباته ؛ وهى إلى هذا كله سليطة إلى أبعد حد . ويهم بأن يضربها[٢٨] ، ولكنه يرى أن أيسر من ضربها عنـــده أن يفرج عن كربه بزيجات جديدة . وكانت نيوبى أولى زوجاته من الآدميين ، وكانت آخرهن ألكمينا وهى من نسل نيوبى فى الجيل السادس

عشر(*) ، وهو يسير على سنة اليونان فى عدم التفريق بين الذكور والإناث ، فيحب جنميد الوسيم ، ويختطفه لكى يجعله ساقيه فوق أولمپس ،

وكان من الطبيعى أن يكون من بين أبناء هذا الأب المخصب بعض النجباء الممتازين . من ذلك أن أثينا حين ولدت كاملة النمو والسلاح من رأس زيوس ، أمدت أدب العالم بإحدى استعاراته التى ما زالت تتكرر حتى ملها الناس . وكانت أجدر الآلهات بأن تكون إلهة مدينة أثينة ، تفخر بأنها عذراء وتتخذ من هذا سبباً لمواسات فتياتها العذارى ، وتبعث فى نفوس رجالها الحماسة الحربية ، وتمثل لبركليز الحكمة التى هى خليقة بها لأنها ابنة متيس وزيوس . ولما حاول الجبار پلاس Pallas أن يغازلها قتلته وأضافت اسمه إلى اسمها ليكون ذلك نذيراً لغيره من خطابها . وقد خصتها مدينة أثينة بأجمل هياكلها وأفخم أعيادها .

وكانت عبادة أپلو الرسيم أوسع انتشاراً من عبادة أخته أثينا ، وكان أپلو إله الشمس المتلألئ ، راعى الموسيقى والشعر والفن ، منشئ المدن ، مشرع القوانين ، إله الشفاء ووالد أسكلپيوس ، إله الحرب الرامى بالنبال إلى أبعد مدى ، الذى خلف جيا وڤوبى Phoebe(**) . فى دلفى ، وكان أقدس من ينزل الوحى فى بلاد اليونان ، وكان إله المحاصيل النامية ، وبهذه الصفة كان يتلقى العشور فى أيام الحصاد ، وكان فى نظير هذا يبعث بدفئه وضوئه الذهبيين من ديلوس ودلفى ليخصب التربة ويغنيها . وكان فى كل مكان يقترن بالنظام والاعتدال والجمال ؛ وبينما كانت عبادة غيره من الآلهة ومراسمها تتضمن كثيراً من عناصر الخوف والخرافات الغريبة ، كانت النغمة السائدة فى عبادة أپلو وفى أعياده العظيمة فى

(*) من واجبنا أن نضيف إلى هذا ، إنصافاً للموتى ، أن معظم هذه المغامرات كانت فى أغلب الظن من اختراع الشعراء أو القبائل التى كانت تحرص على أن تصل أنسابها بأعظم الآلهة كلها .

(**) ومن ڤوبى اشتق اسم فيبوس أى « الملهم » .

دلفى وديلوس هى التعبير عن ابتهاج الشعب المستنير بإله الصحة والحكمة والعقل والغناء ، وكانت أخته أرتميس (ديانا) . سعيدة مثله . وكانت أرتميس إلهة الصيد العذراء ، المنهمكة فى شئون الحيوانات ، وفى ملذات الغابات ، انهماكا لا يترك لها وقتاً لحب الرجال ، وكانت إلهة الطبيعة البرية ، والمراعى والغابات والتلال ، والغصن المقدس . وكما كان أبلو المثل الأعلى للشباب اليونانى ، كذلك كانت أرتميس المثل الأعلى للفتيات اليونانيات — كانت قوية الجسم ، رياضية رشيقة عنيفة ، وهذا فقد كانت راعية النساء فى الولادة ، وكن يدعونها لتخفف عنهن آلام الوضع . وكانت تحتفظ فى إفسوس بطبيعتها الأسيوية ، فكانت إلهة الأمومة والإخصاب ؛ وبهذه الطريقة اختلطت فكرتا العذراء والأم فى عبادتها ، وقد وجدت الكنيسة المسيحية فى القرن الخامس بعد الميلاد أن من الحكمة أن تضيف ما بقى من هذه الطقوس الدينية إلى مريم ، وأن تحول عيد الحصاد الذى كان يقام لأرتميس فى منتصف أغسطس إلى عيد انتقال العذراء إلى السماء[٢٩] . وبهذه الطريقة وأمثالها يحتفظ الجديد بالقديم ويتبدل كل شىء عدا الجوهر ذلك أن التاريخ كالحياة يجب أن يستمر أو يموت ؛ فقد تتبدل الأخلاق والأنظمة ولكنها تتبدل ببطء ؛ وإذا حال حائل قوى بينها وبين نمائها وتطورها نسيت الأمم نفسها وجن جنونها .

وكان من بين تلك الآلهة إله أشبه ما يكون بالآدميين ، هو الصانع الأولمبى الماهر هفستس الأعرج المعروف عند الرومان باسم فلكان Vulcan . ويبدو أن هذا الإله المهين المظلوم ، إله السماء الأول كان إلها سخيفاً خليقاً بالرثاء ، ولكنه فى آخر الأمر يستدر عطفنا أكثر مما يستدره الآلهة الماكرة التى لا ضمير لها ، والتى تسىء معاملته ، ولعله كان فى أيامه الأولى ، قبل أن يصير قريب الشبه بالأناس ، روح النار والكير . وهو فى قصص هومر الدينى ابن زيوس وهيرا ، ولكن أساطير غير أساطير هومر تؤكد لنا أن هيرا حسدت زيوس على مولده

لأثينا بلا معونة ، فولدت هى الأخرى هفستس من غير حاجة إلى ذكر . ولما رأته قبيح المنظر ضعيف الجسم ، ألقت به من فوق أولمپس ، ولكنه عرف طريق العودة إلى موطنه ، وشاد للآلهة القصور الكثيرة التى كانوا يسكنون فيها . وكان يكن لأمه كل شفقة وإجلال رغم ما لقيه على يديها من سوء المعاملة ، وقد دافع عنها دفاعا مجيداً فى نزاعها مع زيوس ، فما كان من إله أولمپس العظيم إلا أن أمسك بساقه وقذف به إلى الأرض . واستغرق هفستس فى تروله يوماً كاملا ، حتى استقر آخر الأمر على جزيرة لمنوس ، وجرح عقبه ، ويؤكد العارفون أنه أصبح من ذلك الحين شديد العرج يتألم كلما مشى (وإن كان هومر يقول إنه كان أعرج قبل هذه الحادثة) . وعاد مرة أخرى إلى أولمپس ، وصنع فى حانوته الكثير الضوضاء سنداناً ضخماً وضع فيه عشرين منفاخاً كبيراً ، وعمل دروع أخيل ، وتماثيل تتحرك من نفسها ، وعجائب أخرى كثيرة . وكان اليونان يعبدونه بوصفه إله جميع الصناعات المعدنية ، ثم أصبح عندهم إله جميع الصنائع اليدوية ، وكانوا يعتقدون أن البراكين هى مداخن حوانيته التى تحت الأرض . وكان من سوء حظه أن تزوج أفروديتى ووجد أن من أصعب الأمور أن تجتمع الفضيلة والجمال فى شخص واحد . ولما عرف هفستس بما كان بينها وبين أريس ، صنع للمحبين شركا وقع عليهما فى أثناء اجتماعهما . وهكذا انتقم الإله الأعرج لعرجه بأن عرض على زملائه الآلهة إلهى الحب والحرب مكبلين فى الأغلال ، وكان منظراً أثار ضحك الآلهة . وقال هرمس لأپلو — كما يحدثنا هومر :

« أى هرمس يابن زيوس ... هل يرضيك حقيقة أن تنام على فراش واحد بجانب الإلهة أفروديتى ، ولو كنت مكبلا بالأغلال الثقال ؟ » فأجابه الرسول(*) يقول : أيها الإله أپلو ؛ ليت هذا يكون ، وليتنى أكبل بثلاثة أمثال هذه الأغلال التى لا أجد منها خلاصا ، وأن تشاهدونى أنتم أيها الآلهة — نعم

(*) يقصد هرمس لانه رسول الآلهة . (المترجم)

والإلهات كلها أيضاً — إن استطعت أن أنام إلى جوار أفروديتى الذهبية[٣٠] » .

حسبنا هذا عن هفستس ؛ أما إزيس (المريخ) فلم يكن يمتاز بالذكاء أو الدهاء ؛ وكانت صناعته الحرب ، وحتى سحر أفروديتى ومفاتنها لم تكن تثير فيه النشوة التى يثيرها التقبيل الذى كان شهوة وغريزة فيه . ويسميه هومر « نقمة صبت على البشر » ، ويصف لنا وهو مغتبط كيف ألقته أثينا على الأرض بضربة حجر ، ويقول إنه « وهو نائم قد غطى سبعة أفدنة[٣١] » . هذا أريس أما هرمس (ميركرى أو عطارد) فأكثر منه طرافة . فقد كان فى بادئ أمره حجراً ، وعبادته مستمدة من عبادة الحجارة المقدسة ؛ ولا تزال المراحل التى مر بها ظاهرة واضحة ، فقد صار فى المرحلة الثانية الحجر الطويل الذى يوضع فوق المقابر ، أو الروح (الديمون) الكامنة فى هذا الحجر ؛ ثم صار بعدئذ حجر الحدود أو إلهها ، يحدد الحقول ويحرسها ، وإذ كان عمله فيها فضلا عن تجديدها وحراستها هو توفير الخصب لها ، فقد صار قضيب الرجل رمزاً من رموزه . ثم أصبح فيما بعد العمود — ذا الرأس المنحوت ، والجسم غير المنحوت ، وعضو التذكير البارز — الذى كان يوضع أمام بيت كل أسرة ذات شأن فى أثينة[٣٢] . وسنرى كيف كان بتر هذه الأعمدة عشية الحملة على سرقوسة السبب المباشر لهلاك ألقبيادس وخراب أثينة . وهو إلى هذا كله إله المسافرين ، وحامى المنادين ، وعصبهم من أحب شعائره إليه . وقد أصبح بوصفه إله المسافرين إله الحظ ، والتجارة ، والدهاء ، والكسب ، ومن ثم أصبح مخترع المكاييل والموازين ، وحارسها ، كما أصبح الملاك الراعى للحانثين والمختلسين واللصوص[٣٣] . وهو نفسه بشير ونذير يحمل الرسائل والأوامر بين الآلهة الأولمبية أو بينها وبين البشر ، وهو يسير على خفين مجتمعين بسرعة الريح الغاضبة العاصفة ، وتكسبه هرولته ليناً ورشاقة ، وتهيئه لأن يتخذ الصورة التى يظهر بها فى تمثال پركستليز . وهو بوصفه شاباً سريع العدو قوى الجسم ، راعى الرياضيين ونصيرهم ، ونجد صورته التى تظهر

فيها رجولته كاملة مكانا لها فى كل مكان للتدريب العضلى[٣٤] . وإذ كان هو المنذر والمبشر فقد كان إله الفصاحة ، وإذ كان الشارح السماوى فقد أصبح رأس عدد كبير من الشراح والمفسرين . وتصف إحدى الترانيم « الهومرية » كيف مد أوتاراً على صدفة سلحفاة واخترع بذلك قيثارة . ثم يحين الوقت الذى يسترضى فيه أفروديتى فيستولدها ، كما يخبرنا القصاصون ، خنثى (هرمفروديتى Hermaphrodite) ناعم الجسم يرث منهما مفاتنهما ويشتق اسمه من اسميهما .

ومن الخصائص التى امتازت بها بلاد اليونان أن كان لها فضلا عن إلهه العفة والبكورة والأمومة ، إلهة للجمال والحب ، وما من شك فى أن أفروديتى كانت فى مواطنها الأولى بالشرق الأدنى ، وفى قبرص موطنها نصف الشرقى ، كانت فى هذه المواطن أول الأمر إلهة أمًّا ؛ ولقد ظلت طوال عهدها ذات صلة وثيقة بالتوالد والإخصاب فى الممالك النباتية والحيوانية والبشرية بأجمعها ، فلما أن تقدمت الحضارة وازداد الأمن ولم تعد للناس حاجة بكثرة المواليد ، تركت حاسة الجمال حرة طليقة تجد فى النساء قيما غير قيم التناسل الكثير ، ومن ثم لا تقتصر أفروديتى على أن تكون المثل الأعلى للجمال بل تصبح إلهة اللذائذ الجنسية بجميع أنواعها . وعبدها اليونان فى صور مختلفة : فهى فى صورة أفروديتى أورانيا — السماوية — ربة الحب العذرى أو المقدس ، وفى صورة أفروديتى بندموس Pandemos — الشعبية — إلهة الحب الدنس بكافة أنواعه ، وفى صورة أفروديتى كليبيجوس Kallipygos ذينوس ذات الردفين الجميلين . وقد أقامت المومسات فى أثينة وكورنثة هياكل لها ، واتخذنها راعية لهن ونصيرة . وكانت بعض المدن فى بلاد اليونان تحتفل بالأفروديسيا عيدها العظيم فى أول شهر إبريل ، وفيه كانت تطلق حرية الاختلاط الجنسى لكل من شاء[٣٧] . وكانت هى إلهة الحب لأهل الجنوب ذوى الشهوات الجنسية والعواطف الثائرة ، وهى المنافسة القديمة لأرتميس إلهة الحب عند أهل الشمال الباردين الصيادين ، وقد جعلتها الأساطير

— التى لا تكاد تقل سخريتها عن سخرية التاريخ — زوجة هفستوس المقعد ، ولكنها تروح عن نفسها بالاتصال بأريس ، وهرمس ، وبوسيدن ، وديونيسس وبكثيرين من الآدميين مثل أنكيسيز وأدنيس(*) . وقد أهدى إليها باريس فى مباراة بينها وبين هيرا التفاحة الذهبية جائزة الجمال ، ولكن بعلها لم تكن جميلة بحق إلا بعد أن أعاد بركستليز تصويرها ، وخلع عليها ذلك الجمال الذى جعل بلاد اليونان تغفر لها جميع خطاياها .

ومن واجبنا أن نضيف إلى كبار الآلهة الأولمبية من أبناء زيوس الشرعيين نهم وغير الشرعيين أخته هيرا إلهة البيت ، وأخاه بوسيدن المشاكس . وكان هذا الإله يماثل عند اليونان نبتون عند الرومان يرى وهو آمن على نفسه فى مملكته المائية أنه ند زيوس وقرينه ؛ وحتى الأمم التى نعيش فى داخل القارة بعيدة عن البحر كانت تعبده لأنه لم يكن الحاكم المسيطر على البحر فحسب ، بل كان المسيطر أيضاً على الأنهار والعيون ، وكان هو الذى يهدى المجارى العجيبة التى تسير تحت الأرض إلى طرقها ، والذى يحدث الزلازل بأمواج المد(٣٩) . وكان الملاحون اليونان يقيمون له الصلوات ، ويشيدون الهياكل على ألسنة الأرض الخطرة الممتدة فى البحار ليتقوا بها غضبه .

وبشيدون هناك آلهة أقل من هذه شأنا حتى على جبل أولمپس ، لأنه تجسيد المعانى المجردة لم يكن يقف عند حد . فمن هذه هستيا (وهى فستا عند الرومان) إلهة

(*) ليست أسطورة أدنيس إلا صورة أخرى من موضوع الإنبات الكثير الصور ، ونقصد بالإنبات موت التربة وبعثها فى كل عام . وقد شغفت بهذا الشاب الوسم كل من أفروديتى وپرسفونى إلهتى الحب والموت . وحسد أريس أرتيس على حظوته لدى أفروديتى فتنكر فى صورة خنزير برى وقتله . وولدت من دم أدنيس شقائق النعمان ، ومن أحزان أفروديتى أنهار من الشعر ؛ وألقنع زيوس الإلهتين أن تقسما بينهما وقت أدنيس والفاته ، فيقى نصف العام مع پرسفونى فى هاديز (الجحيم) ، ثم يعيد إليه فى النصف الثانى حياته الأرضية وحبه الدنيوى . وكان الفينيقيون والقبرصيون والأثينيون يحتفلون بموت أدنيس فيتيمون له عيد الأدونيا ، فكانت النساء يحملن صورة الرب ؛ (لأن هذا هو معنى لفظ أدنيس) . ويندبن موته بأعلى أصواتهن ثم يحتفلن احتفال النصر ببعثه(٣٨) .

الموقد وناره المقدسة ، ومنها إيريس Iris (قوس قزح) ورسول زيوس فى بعض الأحيان ، ومنها هيبى Hebe إلهة الشباب ؛ وإيليثيا التى تعين النساء على الوضع ، ومنها ديكى Dike أو العدالة ، ومنها تيكى Tyche الفرصة ؛ وإيروس Eros الحب الذى جعله هزيود خالق العالم والذى سمته سافو « مذيب الأضلاع ، الحلو — المر ، الوحش الضارى العنيد »(٤٠) . وكان هيمنيوس Hymenæus ، نشيد الزواج ؛ وهپنوس Hypnos النوم ؛ وأنيروس Oneiros الأحلام ؛ وچيراس Geras الشيخوخة ؛ وليثى Lethe النسيان ؛ وثناتوس Thanatos الموت وغيرها وغيرها مما يخطئه الحصر . وكانت لهم تسع إلهات للفن تلهم الفنانين والشعراء : كليو Clio للتاريخ ، ويوتربى Euterpe للشعر الغنائى الذى يوقع على المزمار ؛ وثاليا Thalia للمسرحيات الهزلية وشعر الرعاة ؛ وملپومينى Melpomene للمآسى ؛ وترپسكورى Terpsichore للرقص المصحوب بالغناء وللغناء نفسه ، وإراتو Erato للشعر الغزلى والهزلى ؛ وپولمنيا Polymnia للترانيم ؛ وأورانيا Urania للفلك ، وكليوپى Colliope للملاحم الشعرية . وكانت لهم ثلاث إلهات للرحمة لها اثنا عشر تابعاً هى الساعات . وكان من هذه الآلهة الصغار نمسيس الذى يوزع الخير والشر على الناس ، ويرسل الدمار إلى كل من يرتكب جريمة الهبريس hybris — الزهو فى أيام الرخاء . وكان منها الإرينيات Erinnyes إلهات الغضب الرهيبة التى لا تترك ظلماً إلا انتقمت له . وكان اليونان يطلقون عليها اسم اليومنيدات Eumenides أى مريدات الخير تجملا منهم لها ودرءاً لشرها . وآخر ما نذكر من آلهتهم المويراى Moirai أى ربات الأقدار والحظوظ اللاتى كن ينظمن شئون الحياة تنظيما لا مرد لحكمهن فيه ، ويتصرفن على حد قول البعض فى حظوظ الآلهة والآدميين على السواء . وعند هذا الحد من التفكير يقف الدين اليونانى ثم ينتقل بعده إلى العلم الطبيعى وإلى القانون .

ولقد أبقينا إلى آخر هذا السجل أكثر الآلهة اليونانية إثارة للتعب ،

وأحبها إلى الشعب ، وهو إله يصعب علينا كل الصعوبة أن نحدد مكانه بين هاته الآلهة . ذلك هو ديونيسس الذى لم يقبل بين آلهة أولمپس إلا فى أخريات أيامه . ذلك أنه كان فى أول الأمر من آلهة تراقية ، قبل أن تهبه تلك البلاد إلى اليونان . وكان فى موطنه الأصلى إله الشراب المعصور من الشعير ، وكان اسمه فيها سبزيوس Sabazius ، فلما جاء بلاد اليونان أصبح إله الخمر ، ومغذى الكروم وحارسها . وكان فى بادئ الأمر إلهاً للخصب ، ثم أصبح إله السُّكْر ، وانتهى أمره بأن صار ابن الله الذى مات لينجى البشر . واختلطت عدة صور وأقاصيص بعضها ببعض لتتكون منها أسطورته ، فكان اليونان يتخيلونه فى صورة زجريوس Zagreus أى « الطفل المقرن » ، الذى ولد لزيوس من أخته پرسفونى . وكان أحب أبناء زيوس إليه ، ويجلس إلى جواره على عرشه فى السماء . ولما حسدته هيرا على منزلته وأغرت الجبابرة بقتله ، بدله زيوس بماعز ثم بثور ليخفيه عن الأنظار . ولكن الجبابرة قبضوا عليه وهو فى هذه الصورة الثانية ، وقطعوا جسمه إرباً ، سلقوها فى قدر . وفعلت به أثينا فعل ترلونى Trelawnay ، فأنقذت قلبه وحملته إلى زيوس ؛ وأعطاه زيوس إلى سميلى Semele فحملت به وولدت الإله مرة أخرى وسمى بعد مولده ديونيسس(*) .

وكان الحزن على موت ديونيسس والاحتفال والسرور ببعثه أساس طقوس دينية واسعة الانتشار بين اليونان . فقد كانت النساء اليونانيات يصعدن التلال

(*) وقد فسر ديودور الصقلى من زمن بعيد يرجع إلى عام ٥٠ ق. م هذه القصة على أنها أسطورة من أساطير الإنبات فقال إن زجريوس ، الكرم ، هو ابن دمتر ، الأرض ، بعد أن لقحها زيوس ، المطر . ويقطع ، أى يشذب ، الكرم كما يتقطع الإله ليحيا حياة جديدة ، ويغلى عصير العنب ليكون نبيذاً . ويولد الكرم مولداً جديداً فى كل عام ، بعد أن يستمد غذاءه من المطر(٤١) وقد وجد هيرودوت بين أسطورتى ديونيسس وأوزيريس من أوجه الشبه الكثيرة ما جعله يجمع بين الإلهين فى مقاله الذى يعد من أول ما كتب من المقالات فى مقارنة الأديان(٤٥)

فى فصل الربيع حين تزهر الكروم ليقابلن الإله حين يولد من جديد . وكن يقضين يومين كاملين يحتسين فيهما الخمر بلا حساب وكن يرين كما يرى السكيرون غير المتدينين فى هذه الأيام أن قليلة العقل من لا تفقد عقلها من الشراب ، وكن يسرن فى موكب عجاج تقودهن ميندات Maends أو نساء ذاهلات العقل مشغوفات بديونيسس ؛ وكن يرهفن آذانهن لسماع قصته التى يعرفنها حق المعرفة ، وما لقيه إلههن من عذاب وموت وبعث ؛ وكن فى أثناء احتسائهن الخمر ورقصهن يهتجن اهتياجا يتحللن فيه من جميع القيود . وكان محور هـذا الاحتفال وأهم ما فيه أن يمسك النساء بماعز أو ثور أو رجل فى بعض الأحيان (يرين أن الإله قد تقمصه) ويمزقنه إربا وهو على قيد الحياة ، إحياء لذكرى تمزيق ديونيسس ؛ ثم يشربن دمه ، ويأكلن لحمه يتخذنه عشاء ربانيا مقدسا ، معتقدات أن الإله سيدخل بهذه الطريقة إلى أجسامهن ويستحوذ على أرواحهن . وكن فى هذه الحماسة القدسية(*) يؤمن بأنهن سيصبحن هن والإله شيئاً واحدا ، وأنهن سيظفرن بالامتزاج معه امتزاجا صوفياً . ولهذا كن يتسمين باسمه فيطلقن على أنفسهن اسم البكوى Bacchoi ويعتقدن أنهن لن يمتن بعدئذ أبداً ، أو كن يسمين الحالة التى هن فيها الإكستسيز ecstases (النشوة) أى خروجهن من أرواحهن ليلاقين ديونيسس ويتحدن معه . وبهذا كن يشعرن بأنهن قد تحررن من أجسامهن ؛ وحصلن على قوة اختراق حجب الغيب فأصبحن قادرات على التنبؤ ، وصرن فى واقع الأمر إلهات . تلك هى الطقوس الانفعالية التى انتقلت من تراقية إلى بلاد اليونان كأنها وباء دينى شبيه بأوبئة العصور الوسطى ، ينتزع أقليا فى أثر إقليم من آلهة أولمپس الباردة الواضحة معبودات الدولة الرسمية ليُحل محلها دينا طقوسا تشبع شهوة الاهتياج والتحرر من القيود ، والحنين إلى التحمس

(*) ولفظ الحماسة الإنجليزى enthusiasm مشتق من إنثيوس Entheos « إله فى الداخل » وكان هذا اللفظ يعنى فى أول الأمر تملك إله جسم إنسان .

والاستحواذ والتصوف والغموض . وقد حاولت دلفى أن تبعد عنها هذه الطقوس الدينية ، وحاول ذلك حكام أثينة أيضا ، ولكن دلفى عجزت عن إبعادها عجز حكام أثينة . وكل ماكان فى مقدورها ومقدورهم هو إدخال ديونيسس فى زمرة أرباب أولمپس ، وصبغه بالصبغة اليونانية والإنسانية ، والاحتفال بعيده احتفالا رسمياً ، وتبديل مرح عباده من نشوة الخمر الجنونية بين التلال إلى المواكب الفخمة والأغانى القوية والمسرحية ذات الروعة والجلال التى تمثل فى عيد ديونيزيا العظيم . وقد ضموا ديونيسس وقتاً ما إلى أپلو ، ولكن أپلو استسلم آخر الأمر لوارث ديونيسس وغالبه ألا وهو المسيح .

(شكل ١٧) أرفيوس ، ويوريديز ، وهرمس
(متحف نابلى)

الفصل الثالث

أسرار خافية

لقد كان فى دين اليونان ثلاثة عناصر وثلاث مراحل رئيسية : عنصر أرضى ومرحلة أرضية ، وعنصر أولمبي ومرحلة أولمبية ، وعنصر صوفى ومرحلة صوفية . وأكبر الظن أن أول العناصر وأولى المراحل من أصل پلاسجى — ميسينى ، وأن ثانيهما وثانيتهما من أصل أخى — دورى ، وثالثهما وثالثتهما من أصل مصرى — أسيوى . وكانوا يعبدون فى المرحلة الأولى آلهة تحت الأرض وفى الثانية آلهة سماوية وفى الثالثة آلهة بعثت بعد الموت . وكانت العبادة الأولى أكثر انتشاراً بين الفقراء ، والثانية بين الأغنياء ، والثالثة بين الطبقة المتوسطة — الدنيا . وسادت العبادة الأولى قبل العصر الهومرى والثانية فى أثنائه والثالثة بعده . ولم يكد يحل عصر الاستنارة فى أيام پركليز حتى كان التخفى أقوى العناصر فى الدين اليونانى . والتخفى عند اليونان احتفال سرى يكشف فيه عن رموز مقدسة ، وتقام فيه طقوس رمزية ، لا يتعبد بها إلا المطلعون على أسرارها . وكانت هذه الطقوس فى العادة تمثل عذاب إله من الآلهة وموته وبعثه ، أو تحيي ذكرى هذا العذاب والبعث والموت بطريقة شبه مسرحية ، وتشير إلى موضوعات زراعية قديمة وإلى ضروب من السحر ، وتعدُ أولئك المطلعين حياة أبدية خالدة .

وكانت أماكن كثيرة فى بلاد اليونان تمارس هذه الطقوس الخفية ، ولكن ما من مكان فيها كان يضارع إلوسيس من هذه الناحية . وكان ما فيها من الطقوس موروثاً من عهد ما قبل الآخيين ، ويبدو أنها كانت فى الأصل احتفالا فى الخريف بالحرث والزرع (٤٣) . فقد كان ثمة أسطورة تقول إن دمتر أرادت أن تكافئ أهل أتكا لعطفهم عليها فى تجوالها فأقامت فى إلوسيس أعظم هيكل من

هياكلها ، ثم هدم هذا الهيكل وأعيد بناؤه مراراً كثيرة خلال تاريخ اليونان . ودخل عيد دمتر فى أيام أثينة صولون وبيسستراتس وبركليز ، وازداد فيها عظمة وفخامة ، وكان طلاب الأسرار الصغرى التى تقام فى فصل الربيع بالقرب من أثينة يتطهرون أولا بأن يغمروا أنفسهم فى ماء إليسس Illisus ، فقد كان الطلاب وغيرهم من الناس يحجون سيراً على الأقدام فى وقار وجزل مدى أربعة عشر ميلا فى الطريق المقدس إلى إلوسيس ، يحملون فوق رؤوسهم صورة الإله الأرضى ياكوس Iacchus حتى إذا ما وصل الموكب إلى إلوسيس فى ضوء المشاكل ووضع صورة الإله فى الهيكل وسط مراسم التعظيم والإجلال ، قضوا ما بقى من اليوم فى الرقص والغناء المقدسين .

تلك هى الأسرار الصغرى ، أما الأسرار الكبرى فكانت تدوم أربعة أيام أخرى ، وتبدأ بإدخال من تطهروا فى الأسرار الصغرى بالاستحمام والصوم ، أما الذين مارسوا هذه الطقوس فى مثل ذلك الموعد من العام الماضى فكانوا يؤخذون إلى بهو الاندماج فى الجماعة السرية ، حيث يكون الاحتفال السرى . وهناك يفطر المبتدئون الصائمون بأن يتناولوا عشاء ربانيا مقدساً إحياء لذكرى دمتر ، ويشربوا مزيجاً مقدساً من دقيق الحنطة والماء ، ويأكلوا كعكا مقدساً . ولسنا نعلم أى طقوس خفية كانت تحدث فى ذلك المكان ، فذلك شر ظل خافياً خلال التاريخ القديم كله ، وكان محرماً على أى إنسان أن يبوح به وإلا تعرض للقتل . ولقد نجا إسكلس التقى نفسه من حكم الإعدام بأعجوبة لأنه كتب بضعة أسطر ظُن أنها قد تكشف السر . وكل ما نستطيع أن نقوله أن الاحتفال كان عبارة عن مسرحية رمزية لها أثر فى إحياء مسرحية ديونيسس ، وأكبر الظن أن موضوعها كان اختطاف پلوتو لپرسفونى ، وتجوال دمتر الحزينة وعودة الفتاة العذراء إلى الأرض ، والكشف لأتكا عن أسرار الزراعة . وكانت خلاصة الاحتفال هى زواج خفى بين كاهن يمثل زيوس وكاهنة تمثل دمتر ،

وكان هذا الزواج الرمزى يثمر ثمرته بسرعة سحرية عجيبة ، فقد كان يعقبه بعد قليل — على ما ينقله لنا المؤرخون — إعلان صريح بأن « سيدتنا قد وضعت غلاماً مقدساً » ؛ ثم تعرض على الناس سنبلة من الحب ترمز إلى الثمرة التى تمخضت عنها دمتر — نتاج الحقول ، ثم يؤخذ العابدون فى ضوء المشاعل الشاحب إلى كهوف مظلمة تحت الأرض تمثل الجحيم ، يرفعون بعدها إلى حجرة عليا تتلألأ فيها الأنوار وتمثل ، على ما يظهر ، مسكن الصالحين ؛ وفيها تعرض عليهم وسط مظاهر التعظيم والتكريم الآثار أو الصور والتماثيل المقدسة التى ظلت إلى تلك الساعة مخفية عنهم ، ويؤكد العارفون أن هؤلاء المبتدئين كانوا وهم فى نشوة هذا الإلهام المقدس يحسون بوحدتهم هم والإله ووحدة الإله والروح ، وأنهم قد انتشلوا من أوهام الفردية ، وأدركو طمأنينة الاندماج فى الألوهية[٤٤] .

وفى عصر پيسستراتس دخلت أسرار ديونيسس فى الطقوس الإلوسينية عن طريق عدوى دينية إذا صح هذا التعبير ، وذلك أن الإله ياكوس قد وحد هو وديونيسس ، وقيل إنه هو ابن پرسفونى ، وطغت خرافة ديونيسس زجريوس على أسطورة دمتر[٤٥] . ولكن الفكرة الرئيسية فى هذه الطقوس نفسها ، وجوهر هـــذه الفكرة هو أن الموتى يمكن أن تتجدد حياتهم كما أن البذرة تولد مرة ثانية ، ولم يكن يقصد بحياتهم هذه حياة الأشباح النكدة فى الجحيم ، بل يقصد بها حياة ملؤها السعادة والطمأنينة . ولما زال كل ما عدا هذه الفكرة من الدين اليونانى ، ظل هذا الأمل يعمر القلوب وامتزج فى الإسكندرية بعقيدة الخلود المصرية التى هى أصل العقيدة اليونانية ، فكان هو السلاح الذى غزت به المسيحية العالم الغربى .

وجاءت إلى بلاد اليونان فى القرن السابع طقوس دينية صوفية أخرى من مصر وتراقية ، وتساليا ، وكانت هذه الطقوس أجل خطراً فى تاريخ اليونان من طقوس إلوسيس الخفية نفسها . ونجد فى بداية هذه الطقوس فى عصر ركاب

السفينة أرجوس شخصاً غامضاً ولكنه مع ذلك جذاب فتان ، ذلك هو أرفيوس التراقى الذى يصفه ديودور بأنه لم يكن يدانيه أحد ممن نعرف أسماءهم من الرجال فى الثقافة والموسيقى والشعر(٤٦) ، ونرجح كثيراً أن أرفيوس هذا كان شخصاً حقيقياً ، وإن كان كل ما نعرفه عنه يمت بسبب إلى الأساطير . فهم يصورونه لنا فى صورة الرجل الظريف ، الشفيق ، المفكر ، العطوف ، وهو تارة موسيقى ، وتارة كاهن زاهد من كهنة ديونيسس . وكان بارعا فى العزف على القيثارة وفى الغناء عليها براعة افتتن بها سامعوه حتى كادوا أن يتخذوه إلها يعبدونه .

وكانت الوحوش إذا سمعت صوته خرجت عن طبيعتها واستأنست ، بل إن الأشجار والصخور كانت تغادر مواضعها لتستمع إلى نغمات قيثارته . وتزوج أرفيوس من يريديس الحسناء ، وكاد يجن حين قضت نحبها . فما كان منه إلا أن قفز إلى الجحيم وسحر برسفونى بقيثارته ، وسمح له أن يعيد يريديس إلى الحياة على شريطة ألا ينظر إليها حتى يصلا إلى سطح الأرض . لكنه لم يطق صبراً على هـــذا وخشى ألا تكون من ورائه ، فنظر إلى الوراء عند آخر حاجز بينـــه وبين سطح الأرض ، فرآها تختطف مرة أخرى ويقذف بها إلى العالم السفلى . وحقدت عليه نساء تراقية لأنه أبى أن يسلى نفسه معهن فمزقنه إربا فى نشوة من نشواتهن الديونيسية . وكفر زيوس عن ذنبهن بأن جعل قيثارة أرفيوس كوكبة من نجوم السماء(*). ودفن رأســـه وهو لا يزال يغنى فى لسبوس فى شق صار فيما بعد مهبط وحى . ويقولون إن البلابل فى هذا المكان كانت أرق وأحلى صوتاً منها فى أى مكان آخر(٧) .

وقيل فى العصور المتأخرة إنه خلف وراءه كثيراً من الأغانى الدينية ؛ وليس ببعيد أن يكون هذا صحيحاً ، وتقول الرواية اليونانية المتواترة إن عالماً يدعى أونومكريتوس Onomacritus نشر هذه الأغانى فى عام ٥٢٠ ، كما نشرت

(*) هى المعروفة فى الفلك بكوكبة النسر الواقع . (المترجم) .

القصائد الهومرية قبل ذلك بجيل من الزمان ؛ وفى القرن السادس أو قبله كانت هذه الأغانى قد أصبحت ذات طابع مقدس ، وقيل إنها قد أوحيت إلى صاحبها كما أضحت أساساً لطقوس دينية صوفية ذات صلة بطقوس ديونيسس ، ولكنها تعلو عليها كثيراً فيما تنطوى عليه من عقائد دينية وفى طقوسها وأثرها الخلقى . فأما العقائد الدينية فقد كانت فى جوهرها توكيداً لعذاب ديونيسس زجريوس الابن المقدس وموته وبعثه ، كما كانت تؤكد أيضاً أن الناس جميعاً سوف يبعثون فى حياة مستقبلة يثابون فيها على أعمالهم أو يعاقبون عليها . وإذ كان الاعتقاد السائد أن الجبابرة الذين قتلوا ديونيسس هم الذين تناسل منهم الآدميون ، فقد كانت البشرية كلها ملوثة بشىء من الخطيئة الأولى ، وكان عقابها على هذه الخطيئة أن الروح تسجن فى الجسم كأنها فى سجن أو قبر ، ولكن فى وسع بنى الإنسان أن يعزوا أنفسهم بأن يعرفوا أن الجبابرة قد أكلوا ديونيسس ، وأن كل إنسان ينطوى لهذا السبب فى روحه على جزء من الألوهية الخالدة ، وكان عباد أرفيوس يتناولون فى عشاء ربانى جماعى لحم ثور نيئاً ، يمثل فى اعتقادهم ديونيسس ، إحياء لذكرى قتل الإله وأكل لحمه وامتصاصاً للجوهر المقدس من جديد(٤٨) .

ويقول علم اللاهوت الأرفى إن الروح تذهب بعد الموت إلى الجحيم حيث يحاسبها آلهة العالم السفلى على أعمالها ، وكانت الترانيم والطقوس الأرفية ترشد المؤمنين إلى ما يجب أن يتبعوه فى هـذا الحساب النهائى الشامل ، شأنها فى هذا شأن كتاب الموتى عنـد قدماء المصريين . فإذا حكم على الميت بأنه مذنب عوقب عقاباً شديداً . فمن قول إن هـذا العقاب أبدى(٤٩) وهو الذى أخذت منه فكرة النار فيما بعد ؛ وهناك فكرة أخرى تقول بالتناسخ أى أن الروح تولد مرة بعد مرة لتحيا حياة أسـعد من حياتها الأولى أو أشقى منها حسب طهارتها الأولى أو عدم طهارتها ، ويتكرر هذا المولد مرة بعد مرة حتى تتطهر الروح من ذنوبها تطهراً تاماً فيسمح لها بالدخول فى جزائر المنعمين(٥٠) . وهناك قول

ثالث يبعث الأمل فى قلوب الموتى وخلاصته أن العقاب الذى يلقاه الميت فى الجحيم قد ينتهى إذا كفر الإنسان عن ذنبه قبل موته أو كفر عنه أصدقاؤه بعد موته ، وبهذه الطريقة نشأت عقيدة التطهير وصكوك الغفران ؛ ويصف أفلاطون وهو مغضب غضباً لا يكاد يقل عن غضب لوثر Luther بيع هذه الصكوك فى أثينة فى القرن الرابع قبل الميلاد فيقول :

« يقرع المتنبئون المتسولون أبواب الأغنياء ويدخلون فى روعهم أنهم قد وهبوا القدرة على أن يكفروا لهم خطاياهم أو خطايا آبائهم بضروب من التضحية والرُّقَى . . . ثم يخرجون من حقائبهم مجموعة ضخمة من الكتب بخط موسيوس Musaeus أو أرفيوس . . . يمارسون منها طقوسهم ، ويقنعون الأفراد ومدناً بأكملها أن التوبة من الذنوب والتكفير عنها يتمان بتقريب القرابين والقيام بضروب التسلية (الاحتفالات) التى يشغلون بها ساعات الفراغ والتى يتقدمون بها إلى الأحياء وإلى الموتى على السواء ، وهم يسمون العمل الأخير (الاحتفالات) طقوساً خفية ، ويدعون أنها تنجينا من عـــذاب النار ، فإذا أغفلناها فلا يعلم أحد ماذا يصيبنا من عذاب[٥١] » .

على أن الأرفية كان فيها بالرغم من هذا اتجاهات مثالية هى التى أدت إلى الفلسفة الأخلاقية والرهبنة فى المسيحية . ذلك أن ما كان يعزى إلى آلهة أولمپس من انحلال خلقى واستهتار قد حل محله قانون صارم للسلوك ؛ وثل عرش زيوس الجبار شيئاً فشيئاً وحلت محله شخصية أرفيوس الظريفة بنفس الطريقة التى ثل بها عرش يهوه ليحل محله المسيح فيما بعد . ودخلت فى التفكير اليونانى فكرة الخطيئة والضمير والنظرة الثنائية إلى الجسم والروح ، التى تقول إن الجسم خبيث وإن الروح مقدس ، وصار إخضاع الجسم أهم أغراض الدين كما صار شرطاً لخلاص الروح . ولم يكن لطائفة الإخوان الأرفيين نظام دينى أو حياة خاصة بمعزل عن حياة الناس ، وكل ما كان يميزهم من غيرهم ثيابهم البيضاء وامتناعهم عن أكل

اللحم ، وتقشفهم إلى درجة لم تكن مما يتفق عادة مع الحياة اليونانية ، وملاك القول أنهم كانوا يمثلون فى اليونان إصلاحاً كإصلاح المتطهرين من عدة وجوه .

وكان لهـــذه الطائفة أثر بعيد طويل ؛ ولعل الفيثاغوريين قد أخذوا منها طعامهم ولباسهم ونظريتهم فى تقمص الأرواح . ومما هو جدير بالذكر أن أقدم ما لدينا من الوثائق الأرفية قد وجدت فى جنوبى إيطاليا(٥٢) . وكان أفلاطون يعتقد بنظريتها فى تعارض الجسم والروح ، وبنزعتها التزمتية ، وبأملها فى الخلود ، وفى وسعنا أن نرجع بعض ما فى الرواقية من زهد ومن وحدة الله والكون إلى أصل أرفى ، وقد كان فى حوزة رجال الأفلاطونية الجديدة بالإسكندرية مجموعة كبيرة من الكتابات الأرفية اتخذوها أساسا للاهوتهم وطقوسهم وتصوفهم . كذلك أثرت فكرة النار والمطهر والجنة ، وتعارض الجسم والروح ، والابن المقدس الذى قتل ثم ولد من جديد ، والعشاء الربانى وهو أكل جسم الإله ودمه وقدسيته ، أثرت هذه كلها من قرب أو من بعد فى المسيحية التى كانت هى نفسها دينا ذا طقوس ومراسم خفية ، فيها الكفارة والأمل والوحدة التصوفية وتحرر الروح ، ولا تزال الأفكار والعبـــادات التى تشتمل عليها الديانة الأرفية منتشرة بيننا فى هذه الأيام .

الفصل الرابع

العبادات

لم تكن الطقوس الدينية اليونانية أقل تنوعا واختلافاً من الآلهة التى كانت تحتفل بها وتعظمها : فقد كان للآلهة الأرضية طقوس حزينة يُسَكَّن بها غضبها ويُتَّقى شرها ، وكان للآلهة الأولمبية طقوس سارة كلها ترحيب بها وثناء عليها . ولم تكن هذه أو تلك تحتاج إلى كهنة يقومون بها . فقد كان الأب يقوم مقام الكاهن فى الأسرة ، وكان الحاكم الأكبر يقوم مقامه فى الدولة . بيد أن الحيـــاة فى بلاد اليونان لم تكن حياة دنيوية كما يصفها المؤرخون ، بل كان للدين فيها شأن كبير فى كل مكان ، وكانت كل حكومة ترعى الطقوس الدينية الرسمية وترى أنها لا بد منها للنظام الاجتماعى والاستقرار السياسى . على أنه بينما كان الكهنـــة فى مصر وبلاد الشرق الأدنى يسيطرون على الدولة ، كانت الدولة فى بلاد اليونان هى التى تسيطر على الكهنة ، وكان لها الزعامة فى الشئون الدينية ، ولم يكن الكهنة سوى موظفين صغار فى الهياكل . كذلك كانت أملاك الكهنة ، عقاراً كانت أو نقوداً أو عبيداً ، يراجعها ويدير شئونها موظفون من قبل الدولة[٥٣] . ولم تكن هناك معاهد لتخريج الكهنة بل كان فى استطاعة أى إنسان أن يختار أو يعين كاهنا بلا جلبة أو مشقة إذا كان يعرف المراسم الدينية التى تتطلبها الآلهة ، وكان هذا المنصب فى كثير من الأحيان يتولاه من يؤدى له أكبر الأثمان[٥٤] . ولم تكن هناك طبقة كهان خاصة ، أو هيئة لهم جامعة ، ولم يكن بين كهنة أحد المعابد أو إحدى الدول وزملائهم فى معبد آخر أو دولة أخرى رابطة ما ؛ ولم يكن للدولة دين رسمى ، يستمسك به جميع أفرادها أو عقائد

ثابتة مقررة ؛ ولم يكن قوام الدين هو الإقرار بعقائد معينة ؛ بل كان قوامه الاشتراك فى الطقوس الرسمية[٥٦] ، وكان فى وسع أى إنسان أن يؤمن بما يشاء من العقائد على شريطة ألا يكفر بآلهة المدينة أو يسبها ، وملاك القول أن الدين والدولة كانا شيئاً واحداً فى بلاد اليونان .

ما مكان العبادة فيمكن أن يكون هو موقد الدار ، أو موقد البلدية القائم فى قاعة المدينة العامة ، ويمكن أن يكون شقاً فى الأرض يسكنه إله أرضى أو هيكلاً لإله أولمبى . وكان حرم الهيكل مكاناً مقدساً ، لا يعتدى عليه ، يجتمع فيه العابدون ، ويجد فيه اللاجئون مكاناً أميناً يحتمون فيه ولو كانوا ممن ارتكبوا أشنع الجرائم . ولم يكن الهيكل مكاناً لاجتماع المصلين بل كان بيت الإله ، ينصب فيه تمثاله ، ويوقد أمامه ضوء لا ينطفئ أبداً . وكثيراً ما كان الناس يعتقدون أن الإله هو التمثال نفسه ، ولذلك كانوا يعنون بغسله ، وكسوته ، وإحاطته بكثير من ضروب الرعاية ، وكانوا أحياناً يؤنبونه إذا أهمل أمرهم ، وكانوا يقصُّون على من يستمع إليهم كيف تصبّب التمثال عرقا فى بعض الأحايين أو كيف بكى أو أغمض عينيه[٥٧] . وكان يحفظ فى سجلات الهيكل تاريخ أعياد الإله والحوادث الهامة فى حياة المدينة أو الجماعة التى تعبد الإله صاحب الهيكل ، وكان هذا التاريخ أول التواريخ اليونانية والمنبع الذى استمدت منه أولى أشكال الكتابات التاريخية .

وكان الاحتفال يتألف من موكب ، وأناشيد، وقربان ؛ وأدعية ، يضاف إليها فى بعض الأحيان وجبة مقدسة ؛ وقد يشمل الموكب سحراً، ومقنعات ، وجماهير من الممثلين يعملون مجتمعين ، ومسرحية تمثيلية . وكانت أهم أجزاء الطقوس فى معظم الأحيان تحددها العادات المألوفة ؛ وكانت كل حركة فيها ، وكل كلمة فى الترانيم أو الصلوات ، مدونة فى كتاب محفوظ عند الأسرة أو الدولة مقدس لديها ، لا يكاد يتغير فيه لفظ ، أو جزء من لفظ ، أو نغمة من النغمات

خشية ألا يحب الإله هذه البدعة أو ألا يفهمها . فقد تتغير اللهجات الحية ولكن لغة الطقوس تظل على حالها ، وقد لا يستطيع المتعبدون على مر الزمان أن يفهموا الألفاظ التى ينطقون بها[٥٨] ولكن النشوة التى يبعثها فيهم قدم العهد كانت تغنيهم عن الفهم . وكثيراً ما كان الاحتفال يبقى بعد أن ينمحى من ذاكرة المحتفلين كل شيء عنه ، ولا يبقى فيها حتى سبب هذا الاحتفال أو الباعث عليه . فإذا حدث هذا اخترعت أساطير جديدة تفسر قيامه ، فتتغير الأسطورة أو العقيدة وتبقى المراسم والطقوس ، وكانت الموسيقى عنصراً أساسياً لا غنى عنه فى الاحتفال كله لأن الدين يشق على النفس من غير الموسيقى ، والموسيقى تنتج الدين كما ينتج الدين الموسيقى . ومن الهيكل وأناشيد الاحتفالات ؛ نشأ الشعر ، ونشأت القصائد التى ازدانت بها فى الأيام الأخيرة عقائد أركلوكس القوية البذيئة ، وعواطف سافو الثائرة المستهترة ؛ وأشعار أنكريون الرقيقة الفاجرة .

وإذا ما وصل العابدون إلى المذبح — وكان موضعه عادة أمام الهيكل عملوا على اتقاء غضب الله أو كسب معونته بالتضحيات والصلوات . وكان فى وسعهم أفراداً أن يقربوا إليه كل ما له قيمة لا يكاد يستثنى من ذلك شيء قط : — تماثيل ، أو نقوشاً ، أو أثاثاً ، أو أسلحة ، أو آنية ، أو مناضد ، أو ثياباً ، أو فخاراً ؛ فإذا لم يستطع الإله أن يستخدم هذه القرابين استخدمها الكهنة . أما الجيوش فقد كان فى وسعها أن تهب الإله جزءاً من غنائمها ، كما فعل جنود أكسنوفون العشرة الآلاف فى أثناء ارتدادهم[٥٩] . وكان فى مقدور الجماعات أن تهبه ثمار الحقول أو الكروم أو الأشجار ؛ أو حيواناً يشتهى الإله طعمه وهو الكثير الحدوث ؛ وعند مسيس الحاجة كان يضحى بالآدميين أنفسهم ، فقد ضحى أجممنون مثلا بإفجينيا كى تهب الريح ؛ وذبح أخيل اثنى عشر من شباب طروادة على كومة حريق پتركلوس[٦٠] . وكان الضحايا الآدميون يقذف بهم من فوق صخور قرص ولوكاس استرضاء لأپلو ، وآخرون يهدون إلى ديونيسس فى

طشيوز وتندوس ؛ ويقال إن ثمستكليز ضحى ببعض أسرى الفرس يوم سلاميس[٦١] ؛ وكان الأسپارطيون يحتفلون بعيد أرتميس أورثيا Artemis Orthia بجلد بعض الشبان عند مذبحها جلداً كان يدوم فى بعض الأحيان حتى يقضى على المجلودين[٦٢] . وظل زيوس فى أركاديا يتقبل الضحايا البشرية حتى القرن الثانى بعد الميلاد[٦٣] . وكان إذا انتشر الوباء فى مساليا جيء بمواطن فقير وأطعم من بيت المال ، وألبس الثياب الكهنوتية ، وزين بالأغصان المقدسة ، وألقى من فوق صخرة ومن حوله يدعون أن يكفر بعقابه هذا عن سيئآت مواطنيه[٦٤] . وكان من عادة أهل أثينة إذا داهمهم القحط ، أو الطاعون ، أو غيرهما من الأزمات أن يقدموا للإله ، إما حقيقة وإما تمثيلا ، ضحية بشرية واحدة أو أكثر من واحدة تطهيراً للمدينة ؛ وكان يحدث مثل هذا فى كل عام فى عيد الثارچليا(*) Thargelia[٦٥] . وقد خففت هذه التضحيات البشرية على مر الزمن بأن قصر الضحايا على المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام ؛ وكانوا فوق هذا يخدرون بالخمور ، ثم استعيض عنهم آخر الأمر بالحيوانات . ولما أن رأى بلپيداس Belopidas القائد البثوتى فى الليلة السابقة لمعركة لوكترا (٣٧١ ق . م) حلماً ظن على أثره أنه يطلب إليه تضحية بشرية على المذبح تكون ثمناً للنصر ، نصحه بعض مشيريه أن يلبى الطلب ، وعارضه البعض الآخر وقالوا له : « إن هذا العمل الهمجى المجرد من كل معانى التقى والصلاح لا يمكن أن ترضى به الكائنات العليا أيا كانت ؛ وإن الجبابرة والمردة ليسوا هم حكام الأرض ، بل حاكمها هو أبو الآلهة والخلق عامة ، وإن من السخف أن يتصور الإنسان أرباباً وقوى عليا يسرها التقتيل والتضحية بالآدميين[٦٦] » .

(*) وكان هؤلاء الضحايا يسمون فارمكوى Pharmakoi فى أثينة وكان معنى هذا اللفظ فى أول الأمر « السحرة » . ومعنى نارمكون Pharmakon رقية سحرية ، ثم أصبح معناها عقارا شافيا[٦٦] . والعلماء مختلفون هل كان الفارمكوى يقتلون فى الواقع أو لا يقتلون ، غير أنا لا نكاد نشك فى أن القتل فى أول الأمر كان يحدث فعلا[٦٧] .

وإذن فقد كانت التضحية بالحيوان خطوة كبرى فى تطور الحضارة . وكانت الحيوانات التى سبقت غيرها فى هذا التطور فى بلاد اليونان هى الثيران والضأن والخنازير ؛ فكانت الجيوش المتحاربة تقدم قبل المعركة من الضحايا ما يتناسب مع رغبتها فى النصر ؛ وكان مكان انعقاد أية جمعية يطهر قبل انعقادها بالتضحية بخنزير . غير أن تقوى الناس لم تكن تقوى على طبيعتهم إذا حزبهم أمر خطير ، ولم يكن يصل من الضحية إلى الإله إلا عظامها وقليـــل من لحمها ملفوف بالدهن ، أما ما بقى منها فكان يترك للكهنة وللعابدين . وكان اليونان يبررون عملهم هذا بقولهم إن بروميثيوس Prometheus فى عصر الجبابرة قد لف ما يصلح للأكل من جسم الضحية فى جلدها ، ولف عظامها بالدهن وطلب إلى زيوس أن يختار ما يفضله منهما ، وإن زيوس اختار الدهن « بكلتا يديه » . نعم إن زيوس قد استشاط غضباً حين رأى أنه قد خدع ؛ ولكنه كان قد أتم الاختيار وكان عليه أن يرضى به ويصبر عليه إلى أبد الدهر(٦٩) . ولم تكن الضحية تقدم كلها لحمها وشحمها إلا للآلهة الأرضية ، وكان الحيوان كله فى هذه الحال يحرق فى محرقة عامة حتى يصير رمادا ؛ ذلك أن آلهة الأرض السفلى كان يخشى بأسها أكثر مما يخشى بأس الآلهة الأولمبية . ولم تكن وجبة عامة تعقب التضحية للإله الأرضى ، لأن هذا قد يغرى الإله بالخروج والاشتراك فى الوليمة . أما بعد التضحية للآلهة الأولمبية فقد كان العباد يأتون على الضحية كلها ، ولم يكونوا يفعلون هذا خوفا من الإله وتكفيراً عن ذنوبهم ، بل كانوا يفعلونه لأن من دواعى سرورهم أن يشتركوا فى الطعام مع الإله ، ويرجون أن تكون الصيغ السحرية التى ينطقون بها وقت الطعام قد نفثت فى الضحية حياة الإله وقوته ، وأن هاتين الحياة والقوة ستنتقلان بطريقة خفية إلى الآكلين معه .

وكذلك كان الخمر يصب فوق الضحية ، ويصب بعدئذ فى كؤوس العابدين ، فكأنهم بهذا كانوا يشربون مع الآلهة(٧٠) . وكانت فكرة الاشتراك المقدس

(شكل ١٨) « مولد أفروديتى » من عرش لدفيرى
(متحف رومة)

فى الوجبة الدينية هى الرابطة التى تربط هيئات الإخوان thiosol التى كان كثير من أصحاب الحرف والهيئات الاجتماعية يؤلفونها فى أثينة(٧١) .

وقد ظلت التضحية بالحيوانات منتشرة فى جميع أنحاء بلاد اليونان حتى قضت عليها المسيحية(٧٢) ، واستبدلت بها عن حكمة التضحية الروحية والرمزية المعروفة بالقداس . وأصبحت الصلاة أيضاً إلى حد ما بديلا من التضحية حتى فى العصور الوثنية . وكان استبدال تسبيحات الحمد بالقرابين الدموية إصلاحا يشهد بالحذق لفاعليه ، فبهذه الوسيلة الهينة الرحيمة كان فى استطاعة الإنسان وهو المحوط بالمصادفات والمآسى فى كل خطواته أن يتآسى ويتقوى باستعانته بما فى العالم من قوى خفية .

الفصل الخامس

الخرافات

وكان بين قطبي الدين اليوناني العلوي والسفلي ، الأولمبي والأرضي ، بحر يزخر بالسحر والخرافات ، والأباطيل ؛ وكان من وراء العباقرة الذين سنشيد بذكرهم فيما يلي من صحائف هذا الكتاب ، كما كان من ورائهم ، جمهرة الشعب من الفقراء والسذج الذين لم يكن الدين في نظرهم إلا شراكا من الخوف لا سلما للآمال ؛ ولم يكن اليوناني العادي يكتفي بتصديق القصص التي تروى المعجزات كصعود منسيوس من بين الموتى ليحارب في مرثون ، أو تحويل الماء إلى خمر على يد ديونيسس[٧٣] ، ذلك أن أمثال هاتين القصتين تظهر عند جميع الشعوب ، وهي جزء من الشعر المباح المغتفر الذي ينير به الخيال دياجير الحياة العادية . بل إن في وسع الإنسان أن يذهب إلى أبعد من هـذا فيتغاضى عن حرص أثينة على أن تأوي فيها عظام ثسيوس ، وحرص اسپارطة على أن تسترد من تيجيا Tegeo عظام أرستيز Orestes[٧٤] ، فقد يكون ما يعزوه الحكام لهذه الآثار من قدرة على فعل المعجزات جزءا من فن الحكم وأساليبه . أما الذي كان ينيخ بكلكله على اليوناني الصالح فهو الأرواح المحتشدة من حوله التي يعتقد أنها متأهبة على الدوام لأن تعرف مخبآته ، وأن تتدخل في شئونه وتلحق به الأذى ، وأن في مقدورها أن تفعل به هذا كله . وكانت هـذه الشياطين لا تنفك تعمل لأن تتقمصه ، وكان عليه أن يحذرها ويتقي أذاها على الدوام ، وأن يقيم الاحتفالات السحرية ليطردها بها .

وأوشكت هذه الخرافات أن تكون علماً من العلوم الطبيعية ، وكانت إلى حد ما سوابق لنظرية الجراثيم التي نعرفها اليوم . فقد كان معنى الأمراض جميعها عند اليوناني أن المريض قد حل فيه روح غريب ، وأن من يلمس الشخص

المريض يعدى بقذارته أو « يلبسه ذلك الروح الغريب نفسه » . وليست المكروبات والبكتريا إلا صوراً جديدة شائعة لما كان اليونان يسمونه كريس Keres أو الجن الصغيرة(٧٥) . ومن ثم كان الميت « نجسا » لأن الجنى قد استحوذ عليه كل الاستحواذ ؛ وكان اليونانى إذا خرج من بيت فيه ميت رش نفسه بالماء من إناء يوضع لهذا الغرض عند باب البيت ، وذلك لكى يطرد من جسمه الروح الذى غلب الميت على أمره(٧٦) . وقد امتدت هذه الفكرة عند اليونان إلى ميادين كثيرة لم يمتد إليها علمنا الحديث رغم ما ينتابنا من رهبة البكتريا وجزعنا منها . وكان الجماع من أسباب النجاسة ، كولادة الطفل أو القتل (ولو كان غير متعمد) ، وكان الطفل المولود نفسه نجساً . ولم يكن الجنون إلا حلول روح غريب فى جسم المصاب به ، وكان يقال إن المجنون قد « خرج عن نفسه » ، وكان لا بد فى هذه الحالات من القيام باحتفال يطهر فيه الشخص النجس . وكانت المنازل ، والهياكل ، والمدن بأجمعها فى بعض الأحيان ؛ تطهر بالماء أو الدخان كما نطهرها نحن الآن(٧٧) ، وكان وعاء به ماء نظيف يوضع عند مدخل كل هيكل ، حتى يطهر به نفسه كل قادم للتعبد ، أو لعل هذا الوعاء كان رمزاً يوحى إلى الناس بضرورة التطهر . وكان الكاهن نفسه خبيراً بأصول التطهير ، وكان فى مقدوره أن يطرد الأرواح الشريرة من الأجسام بالضرب على إناء من البرنز ؛ أو بقراءة العزائم ، أو بالسحر أو الصلاة ؛ وحتى قاتل النفس عمداً كان يمكن تطهيره إذا أجريت له الطقوس والمراسم الملائمة . ولم تكن التوبة ضرورة محتومة فى مثل هذه الأحوال ، بل كل ما كان يحتاجه المتطهر هو أن يتخلص من الشيطان الشرير الذى تقمصه ؛ وذلك لأن الدين لم يكن أمر أخلاق بقدر ما كان فناً لمعالجة أمور الأرواح . غير أن كثرة المحرمات ومراسم التطهير قد أكسبت اليونانى المتدين مزاجاً عقلياً يشبه شبهاً عجيباً الشعور بالخطيئة عند طائفة المتطهرين المتزمتين (البيورتان) من الإنجليز . وإن القول بأن اليونان

كانوا مجردين من فكرتى الضمير والخطيئة لا يكاد يبقى له أثر عند من يقرأ كتب بندار وإسكلس ، وقد نشأت من اعتقاد اليونان بأنهم يعيشون فى جو من الأرواح مئات من الخرافات لخصها ثيوفراستوس Theophrastus خليفة أرسو ، فى جزء من كتابه **الأخلاق** فقال :

يبدو أن الإيمان بالخرافات ضرب من الجبن وخور العزيمة أمام القوة الإلهية . . . إن الرجل المخرف لا يخرج من داره أول النهار إلا بعد أن يغسل يديه ويرش نفسه بالماء من العيون التسع ، ويضع فى فمه قطعة من ورقة شجرة فى معبد ، فإذا ما اعترضت طريقه قطة لم يواصل السير حتى يمر به إنسان آخر ، أو يقذف بثلاثة أحجار فى الشارع . واذا أبصر أفعى فى بيته وكانت من النوع الأحمر استنجد بديونيسس ، أما إذا كانت أفعى مقدسة فإنه يقيم لها ضريحاً من فوره فى البقعة التى أبصرها فيها ؛ وإذا مر بأحد الحجارة الملساء المقامة فى مفترق الطرق صب عليه الزيت من قنينته ولم يواصل السير فى طريقه إلا بعد أن ركع له ويتعبد ، وإذا قرض فأر جعبة طعامه ، توجه إلى الساحر وسأله ماذا يفعل ، فإذا أشار عليه بأن « يرسل الجعبة إلى الإسكاف ليرقعها » ، عمل بهذه النصيحة ، ويخلص من النذير المشئوم بطقوس تمنع عنه الشر المرتقب . وإذا وقعت عينه على رجل مصاب بالجنون أو بالصرع ، ارتجف وبصق على صدره[٨٠] .

وكان اليونان السذج يؤمنون ، ويعلمون أطفالهم أن يؤمنوا ، بأنواع لاحصر لها من العفاريت . وكانت مدن بأكملها تروع بين الفينة والفينة بما تنذر به أحداث غريبة كمولد حيوانات مشوهة أو أناس مشوهين[٨١] . وكان الاعتقاد بوجود أيام مشئومة منتشراً إلى درجة تجعل من يؤمنون بهذه العقيدة لا يقدمون فى هذه الأيام على زواج ولا يعقدون فيها جمعية . ولا تجتمع فيها محكمة ، ولا يبدءون فيها مشروعاً خطيراً . وكانت عطسة ، أو عثرة قدم ، تكفى فى بعض الأحيان لحمل العاطس أو العاثر على العدول عن سفر أو عمل هام ، وكان خسوف جزئى يكفى

لوقف زحف الجيوش أو ردها على أعقابها ، وقد يؤدى إلى ختام الحرب بكارثة مدلهمة . يضاف إلى هذا الاعتقاد بأن بعض الناس قد وهبوا قدرة عجيبة على إنزال النقمة ممن يشاءون ، فالأب إذا أغضب قد يصب على من أغضبه ، والسائل إذا أهمل قد يصب على من أهمله ، لعنة لا تقوم لها بعدها قائمة . وكان بعض الناس مهرة فى فنون السحر ، فكان فى وسعهم أن يمزجوا شراباً للعشق أو دواء مقوياً للباه ، وكان فى وسعهم أن يضعفوا ببعض العقاقير السرية قدرة الرجل على الجماع أو يعقموا المرأة فلا تحمل أبداً[٨٢] . وقد رأى أفلاطون أن شرائعه لا تكمل إلا إذا تضمنت تشريعاً يعاقب من يؤذى الناس أو يقتلهم بسحره[٨٣] . فليست الساحرات إذن من اختراع العصور الوسطى ، فها هى ذى ميديا فى روايات يوريديز ، وسميثا Simætha فى روايات ثيوكريتس وهما ساحرتان . وقصارى القول أن الخرافات من أقوى الظواهر الاجتماعية ، وأنها بقيت فى خلال أحقاب المدنية لا تكاد تتغير فى قواعدها وأصولها ولا فى صورها وأشكالها .

الفصل السادس

المتنبئون والمتنبآت

لقد خيل إلى أهل ذلك الوقت الذين كانوا يعيشون فى عالم ملىء بالقوى العليا غير الطبيعية أن حوادث الحياة رهينة بإرادة الشياطين والآلهة ، ولم يكن أمام اليونان الذين يريدون معرفة هذه الإرادة إلا أن يلجئوا إلى العرافين والمتنبئين يستشيرونهم فى أمرهم ، وكان هؤلاء ينبئون بالمستقبل بالنظر فى النجوم : وتأويل الأحلام ، وبحث أحشاء الحيوان ، وزجر الطيور ، وكان العرافون المحترفون يؤجرون أنفسهم للأسر والجيوش والدول(٨٤) ، من ذلك أن نسياس Nicias استخدم قبل أن يسير حملته على صقلية طائفة كبيرة من مقربى القرابين وزاجرى الطيور وقارئى الغيب(٨٥) . ولسنا نقول إن القواد لم يبلغوا كلهم من التقى ما بلغه هذا القائد مالك العبيد ؛ ولكنهم كلهم تقريباً لم يكونوا يقلون عنه إيماناً بالخرافات . وكان يظهر فى البلاد فى أوقات مختلفة رجال ونساء يدعون أنهم ممن يوحى إليهم أو ممن كشف الغطاء عن أبصارهم ، وكان فى أيونيا بنوع خاص نساء يسمين سيبيلات Sibyls (أى إرادة الله) يذعن نبوءات يصدقها ملايين اليونان(٨٦) ، ويقال إن واحدة من أولئك السيبيلات تدعى هرفيلا Herophila طافت ببلاد اليونان مبتدئة من إريثرا Erythra ثم استقرت فى كومى بإيطاليا حيث أصبحت أشهر سيبيلات زمانها ، وعاشت كما تقول الرواية المتواترة ألف عام ، وكان فى أثينة ، كما كان فى رومة ، عدد كبير من المتنبئين والمتنبآت ، وكانت الحكومة تحتفظ فى بهو البلدية الأكبر برجال يحذقون تأويل أقوالهم(٨٧) .

وكان فى كثير من الهياكل المنتشرة فى جميع أنحاء اليونان متنبئون عموميون ، ولكن أشهرهم وأجلهم قدراً فى الأيام القديمة متنبئ زيوس فى دودونا Dodone

كما كان أشهرهم فى العصور التاريخية متنبئ أبلو فى دلفى . وكان اليونان و « البرابرة » يستشيرون هذا المتنبئ ، وحتى رومة نفسها كانت ترسل للرسل ليعرفوا إرادة الإله أو يوحوا إليه بهذه الإرادة . وكانوا يظنون أن النساء أكثر استعداداً لتلقى الوحى من الرجال ، ولذلك كانت ثلاث كاهنات لا تقل سن كل منهن عن نصف قرن يدربن على تعرف إرادة أبلو وهن فى غيبوبة ، وكان غاز عجيب يخرج من فتحة فى الأرض تحت الهيكل ويعزوه الناس إلى تحلل الأفعى التى قتلها أبلو فى ذلك المكان . وكانت الكاهنة التى ستتلقى الوحى تجلس على نضد عال ذى ثلاث قوائم موضوع فوق الشق ، وتستنشق الرائحة الكريهة المقدسة ، وتمضغ أوراقاً من تاج من أوراق الشجر المخدر ، فتغيب عن وعيها ويتقلص جسمها ، ثم ينزل عليها الوحى وهى فى هذا الحال ، فتنطق بألفاظ متقطعة يترجمها الكهنة للشعب المستمع وكثيراً ما كان الجواب النهائى يحتمل تأويلات مختلفة بل متناقضة ، وبذلك تكون المتنبئة صادقة على الدوام مهما وقع من الحوادث[٨٨] . ولعل الكهنة هم والمتنبئة كانوا جميعاً ألعوبة فى أيدى غيرهم ، وكانوا فى بعض الأحيان يقبلون الرشا لينطقوا بما يحب الراشون أن ينطقوهم به[٨٩] ، وكان صوت المتنبئة يتفق فى أكثر الحالات مع صاحب النفوذ الأكبر فى بلاد اليونان[٩٠] . أما إذا لم تكن هناك سلطة خارجية ترغم الكهنة على أن ينطقوا بما ترغب فيه ، فإنهم كانوا يلقون على اليونان دروساً قيمة فى الاعتدال والحكمة السياسية ؛ فقد أعانوا على استقرار القانون وتثبيت دعائمه ، وكان لهم أثر كبير فى تحرير الرقيق ، وقد اشتروا عدداً كبيراً من الأرقاء لكى يحرروهم من الرق ؛ وإن كنا لا ننكر أنهم تغاضوا عن التضحيات البشرية بعد أن أخذ ضمير اليونان ينفر منها ، ولم يرفعوا صوتهم بالاحتجاج على ما كان يحدث فوق جبل أولمپس من فساد خلقى . ذلك بأنهم لم يكونوا متقدمين على التفكير اليونانى ، ولكنهم مع ذلك لم يقفوا فى سبيل هذا

التفكير ويعطلوه بالتعصب لمبادئ وآراء خاصة . وكانوا يخلعون على السياسة اليونانية التى تمليها على الحكام الضرورات الملحة ستاراً من رضاء القوى الإلهية ، وخلقوا شيئاً من الضمير الدولى والوحدة الأخلاقية بين مدن اليونان المبعثرة .

وبفضل هذا الأثر الموحّد نشأ أقدم حلف بين الدويلات اليونانية ، وكانت جامعة المندوبين اليونان — الجامعة الأمفكتيونية Amphictyonic — فى أول أمرها حلفاً دينياً مؤلفاً من « المقيمين حول » هيكل دمتر القريب من ممر ترموپيلى . وكانت أهم الدول التى تتألف منها هذه الجامعة تساليا ، ومجنيزيا ، وفثيوتس Phithotis ، ودوريس ، وفوسيس ، وبوئوتية ، وعوبية ، وآخية . وكان مندوبوها يجتمعون مرة كل ستة أشهر ، فى الربيع فى دلفى ، وفى الخريف فى ترموپيلى ، وقد تعهدوا بألا يخرب بعضهم مدن بعض ، وألا يسمحوا بأن يقطع الماء عن أية واحدة منها ، وألا ينهبوا كنوز أپلو فى دلفى أو يسمحوا بنهبها ، وأن يقاتلوا أية أمة لا تحترم هذه المواثيق . تلك مبادئ لعصبة أمم حال دون قيامها تغلب الثراء والسلطان بين الدول ، وما طبع عليه الأفراد والجماعات من تنافس وتحاسد ، فقد كونت تساليا جبهة من الدول الخاضعة لسلطانها ، وفرضت على هذه العصبة سيطرتها الدائمة[٩٢] . ونشأت عصب أخرى غيرها ، فكانت أثينة مثلا عضواً فى عصبة كلوريا Calauria ؛ وكانت كل واحدة من هذه العصب المتنافسة تعمل لنشر السلام بين أعضائها . ولكنها أضحت على مر الزمن أداة لتدبير الدسائس وإثارة الحروب على غيرها من العصب .

(شكل ١٩) « عرش لدفيز » القاعدة امامى
(متحف روما)

(شكل ٢٠) « عرش لدفيرى » القاعدة ايسرى
(متحف روما)

الفصل السابع

الأعيـــاد

إن لم يكن فى مقدور الدين اليونانى أن يقضى على الحروب ، فإنه قد أفلح فى تخفيف متاعب الحياة الاقتصادية الرتيبة بما كان يقيمه من الأعياد الكثيرة التى قال فيها أرستوفانيز : « ألا ما أكثر ما يقـــدم إلى الآلهة من ضحايا ؛ وما أكثر ما يقام لها من هياكل وتماثيل . . . ومواكب مقدسة ! إنا لنشهد فى كل ساعة من ساعات العام أعياداً دينية وضحايا عليها أكاليل من الزهر ، تقرب للآلهة »(٩٣) . وكانت نفقات هـــذه الأعياد يقوم بها الأغنياء ، أما الدولة فكانت تقدم الأموال المقدسة theorika ، ومنها تؤدى للشعب رسوم الدخول لمشاهدة الألعاب أو المسرحيات التى كانت تمتاز بها هذه الأيام المقدسة .

وكان التقويم الأثينى تقويما دينياً فى جوهره ، وكانت شهور كثيرة تسمى بأسماء ما يقام فيها من أعياد دينية ، ففى الشهر الأول شهر هكتمبيون Hecatombaion (يوليه — أغسطس) يقام عيـــد الكرونيا Cronia (المقابل لعيد الساتورناليا الرومانى) ، وفيه يجتمع السادة والعبيد فى وليمة بهجة طربة . وكان يقام فى هذا الشهر نفسه كل أربعة أعوام عيد الجامعة الأثينية ، وتعقد فيه مباريات ، وتقوم فيه ألعاب مختلفة الأنواع ، تدوم أربعة أيام ، يسير الأهلون جميعاً بعدها فى موكب عام وقور ، يحملون إلى كاهنة أثينة الثوب الفخم الموشى الذى كان يوضع فوق تمثال إلهة المدينة ؛ والعالم كله يعرف أن هذا هو الموضوع الذى اختاره فدياس ليزين به طنف البارثنون . وفى الشهر الثانى المتاجيتنيون Metageitnion كان يقام المتاجيتنيا وهو عيد صغير يقام تكريما لأبلو . وفى الشهر الثالث شهر بوئدرميون Boedromion كان سكان أثينة يخرجون إلى إلوسيس لإقامة الطقوس .

الكبرى الخفية . وفى الشهر الرابع شهر البيانپسيون Pyanepsion كان يحتفـــل بأعياد البيانپسيا والأسكوفوريا Oscophoria والثسموفوريا Thesmophoria . وكانت نساء أثينة فى هذا الشهر يعظمن دمتر ثسموروس (المشرعة) بإقامة طقوس أرضية عجيبة يعرضن فيها رموزا لقضيب الرجل ويتبادلن فحش القول ، ويمثلن الذهاب إلى الجحيم والعودة منها ، ويبدو أن هذه الحفلات كانت رمزا للإخصاب فى الأرض وفى الآدميين(٩٤) . وكان شهر ميمكتريون Maimakterion هو الشهر الوحيد الخالى من الأعياد .

وفى شهر پوسيديون Poseideon كانت أثينة تقيم عيد الإتالوا Italoa عيد بواكير الفاكهة ، وفى شهر جاميليون Gamelion تحتفل بعيد اللينيا Lenaea تكريما لديونيسس . وفى شهر أنثستريون Anthesterion كانت تقام ثلاثة احتفالات هامة ، الطقوس الخفية الصغرى أو التمهيدية ، والديازيا أو التضحية لزيوس ملكيوس ، والأنثستريا أو عيد الزهور ، وهو أهم الأعياد الثلاثة . وفى هذا العيد الربيعى الذى يقام تكريما لديونيسس ويدوم ثلاثة أيام كاملة كانت الخمر تجرى كالأنهار ، ولم تكن ترى إلا سكارى على درجات متفاوتة من السكر(٩٥) ؛ وكان الناس يتنافسون أيهم يفوق غيره فى كثرة الشراب ، والشوارع تعج بالحياة والمرح . وكانت زوجة كبير الأركونين تركب عربة بجوار تمثال ديونيسس وتتزوج به فى الهيكل رمزاً إلى اتحاد الإله بأثينا . وكان يسرى فى هذه الطقوس المرحة قليل من الرهبة والعمل على استرضاء الموتى وكف أذاهم ؛ وكان الأحياء يتناولون فى وقار وهدوء وجبة من الطعام إحياء لذكرى آبائهم ، ويتركون لهم آنية ملأى بالطعام والشراب ، فإذا انقضى العيد أخذ الناس يطردون أرواح الموتى من الدور بصيغة يتلونها ويقولون فيها : « أخرجى من الباب أيتها الأرواح ! لقد انتهى عيد أنثستريا » — وقد أصبحت هذه الألفاظ مثلا يقال عند ما يراد التخلص

من المتسولين الكثيرى الإلحاح(*) .

وفى الشهر التاسع شهر إلافيبوليون Elaphebolion يقع عيد ديونيزيا الكبير الذى أوجده پيستراتس فى عام ٥٣٤ . وفى ذلك العام جعل ثسپيس المسرحية فى أثينة جزءاً من هذا الاحتفال . وكان ذلك فى أواخر شهر مايو والربيع مقبل والبحر هادئ صالح للملاحة ، فأقبل التجار والزائرون حتى ازدحمت بهم المدينة وتضاعف عدد من يشاهدون الحفلات والمسرحيات . وأوقفت جميع الأعمال ، وأعقلت دور القضاء ، وأطلق سراح المسجونين ليستطيعوا الاشتراك فى الحفلات . وخرج الأثينيون على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم فى أزهى الملابس ليشتركوا فى الركب الذى جاء بتمثال ديونيسس من إليوثيزا لوضعه فى مقره . فركب الأغنياء العربات ، وسار الفقراء راجلين ، ومن ورائهم قافلة طويلة من الحيوانات لتهدى إلى الآلهة . واشتركت فى هذا الموكب فرق من المغنين أقبلت من مدن أتكا تتبارى فى الغناء والرقص . وفى الشهر العاشر شهر منيكيون Munychion كانت أثينة تحتفل بعيد المنيكيا ، وكانت تحتفل كل خمسة سنين بعيد البروروونيا Brauronia تكريما لأرتميس . وفى شهر ثراجليون يقع الثراجليا أى عيد حصاد الحب . وفى الشهر الثانى عشر شهر سكروفريون Skirophorion كان يحتفل بأعياد اسكروفوريا ، وأرتوفوريا Arretophoria ، ودپوليا Dipolia وبوفنيا Bouphonia . ولم تكن هذه الأعياد كلها أعياداً سنوية ، ولكنها ، حتى ما لم يكن يحتفل به منها إلا كل أربع سنين ، كانت تخفف كثيراً من كدح الحياة اليومية .

وكان لغير أثينة أيام مقدسة شبيهة بهذه الأيام ؛ وكان كل موسم من مواسم الزرع أو الحصاد فى الريف يستقبل بمظاهرة البهجة والمرح . وكان أعظم من هذه الأعياد كلها أعياد الجامعة الهيلينية ، والحفلات العامة الجامعة Panegyreis ،

(*) لا يزال الناس فى أنحاء كثيرة من أوربا يعتقدون أن الأرواح تعود إلى الأرض كل عام ، وأن عليهم أن يولموا لها وليمة فى « عيد جميع الأرواح(٩٦) » .

ومن هذه الأعياد عيد الجامعة الأيونية Panionia فى ميكالى Mycale وعيد أپلو فى ديلوس ؛ والعيد البيثى Phthian فى دلفى ، وعيد البرزخ Isthmiu فى كورنثة ، والعيد النميثى Nemean فى أرجوس ، والعيد الأولمپى فى إليس . وكانت تقام فى هذه الأعياد مباريات رياضية بين الدول المختلفة ، ولكنها كانت فى أساسها أياما مقدسة . فقد كان من حسن حظ بلاد اليونان أن كان دينها من العناصر البشرية — وأن كان فيها فى آخر أيامها من العناصر الإنسانية الرحيمة — ما يكفى لاقترانه بالفن ، والشعر ، والموسيقى ، والألعاب ، واقترانه آخر الأمر بالأخلاق اقتراناً جعله مصدر السرور والإبداع .

الفصل الثامن

الدين والأخلاق

يبدو لأول وهلة أن الدين اليونانى لم يكن ذا أثر كبير فى الأخلاق ، فقد كان فى أصله طائفة من قواعد السحر لا من قواعد الأخلاق القويمة ، وبقى إلى حد كبير على هذا النحو إلى آخر أيام اليونان . وكان لصحة المراسم والطقوس فى هذا الدين شأن أكبر مما للسلوك القويم ، ولم تكن الآلهة نفسها ، الأولمبية منها والأرضية ، مثلا طيباً فى الأمانة والعفاف ودماثة الأخلاق . وحتى الشعائر الإلوسينية الخفية ، كانت تجعل التطهير بالمراسم والطقوس لا طهارة النفس وكرم الأخلاق هو العامل الأكبر فى النجاة من العذاب وإن كنا لا ننكر أنها كانت تبعث فى النفوس آمالا كباراً . وفى ذلك يقول ديوجين الساخر : « سيكون اللص پتيكيون Pataikion بعد موته أسعد حالا من أجسلوس Agesilaus أو أپاميننداس لأن پتيكيون قد كرس فى إلوسيس» (٩٧) .

لكن الدين اليونانى ، رغم هذا ، كان عوناً خفياً للشعب وللدولة فى أكثر الشئون الأخلاقية حيوية . من ذلك أن مراسم التطهير وإن كانت كلها مظاهر خارجية كانت ترمز إلى الأخلاق القويمة . كذلك كانت الآلهة تعين على الفضيلة وإن كانت هذه المعونة عامة غير دقيقة ، وغامضة ، وغير مطردة . ذلك أنها كانت تغضب على الشرير وتنتقم من المتكبر ، وتحمى الغريب ، وتستجيب لمن يتوسل إليها ، وتحمى بجبروتها قدسية الأيمان . فهم يقولون لنا إن ديكى Dike كانت تعاقب على كل ظلم ، وإن يومنيدس Eumenides الرهيب كان يقتفى

أثر القاتل ، كما يفعل أرستيز ، حتى يجن أو يموت . وكان الدين يخلع القدسية والكرامة على أهم أحداث الحياة الإنسانية وأنظمتها — كالمولد ، والزواج ، والأسرة ، والعشيرة ، والدولة — ، وينتشلها من فوضى الشهوات العاجلة . وكانت عبادة الموتى وتكريمهم يربطان الأجيال المتعاقبة برباط من الواجبات المستقرة المتصلة . وبفضلهما لا تقتصر الأسرة على أن تكون زوجا وزوجة معهما أطفال ، أو مجموعة أبوية من الآباء والأطفال والأحفاد ، بل تصبح فضلا عن هـذا اتحاداً مقدساً وتتابعاً مستمراً للدم والنار ، ترجع أصولها إلى الماضى السحيق وتمتد أغصانها إلى المستقبل البعيد ، وتربط الموتى والأحياء ومن لم يخرجوا بعد إلى هـذا العالم برباط مقدس أقوى من رباط الدولة مهما قويت . وكان إنجاب الأطفال واجباً مقدساً موتى يفرضه الدين على الأحياء ، ثم لا يكتفى بهذا بل يشجع على النسل بأن يدخل فى روع من لا أبناء له أنه قد لا يجد من يوارى جسمه التراب أو يعنى بقبره بعد وفاته . وقد ظل اليونان يتناسلون بكثرة خيارهم وشرارهم على السواء طالما كان للدين أثر فى حياتهم ، وكان من نتيجة هذه الكثرة مضافاً إليها الانتخاب الطبيعى الصارم أن احتفظ اليونان بقوتهم ومميزاتهم . وكان الدين والوطنية تربطهما مئات من الطقوس الرهيبة المؤثرة ، فكان أكثر الآلهة والإلهات احتراماً فى الاحتفالات العامة بطل المدينة المؤله أو بطلتها المؤلهة ؛ وكان كل قانون وكل اجتماع للجمعية أو لدور القضاء ، وكل عمل خطير يقدم عليه الجيش أو الحكومة ، وكل مدرسة وجامعة ، وكل هيئة اقتصادية أو سياسية ، كانت هذه كلها تحيط بها الاحتفالات والتضرعات الدينية . وبهذه الوسائل كلها كان الدين اليونانى يستخدم لحماية المجتمع والشعب من أنانية الفرد الغريزية . وقوت الفنون والآداب والفلسفة هذا الأثر الدينى فى بادئ الأمر ، ثم عملت بعدئذ

على إضعافه ؛ فقد أخذ پندار ، وإسكلس ، وسفكليز ينفثون حماسهم الأخلاقية أو فطنهم فى العقائد الأولمپية ؛ ورفع فدياس من مقام الآلهة بما خلعه عليها من جمال وجلال ؛ وجمع فيثاغورس وأفلاطون بين الفلسفة والدين ، وأيدا عقيدة الخلود ليجعلا منها باعثاً قوياً على حسن الخلق . لكن پروتجراس كان يشـــك فى الآلهة ، وسقراط يتجاهلها ولا يأبه بها ، ودمقريطس يجحدها ، ويوريديز يسخر منها ، وانتهى الأمر بأن دكت الفلسفة اليونانية ، عن غير قصد منها ، قواعد الدين الذى صاغ الحياة الأخلاقية فى بلاد اليونان فى القالب الذى وجدت فيه .